أحمد خليل الشال



حكم قراقوش

- هل قراقوش شخصية أسطورية أم حقيقية
- اسمه .. نسبه .. نشأته
- إنجازات قراقوش

الدار الذهبية

الدار الذهبية للطبع والنشر والتوزيع

تليفون : ٧٩٥١٧٤٨ - ٣٩١٠٣٥٤ فاكس : ٧٩٤٦٠٣١





المقدمة

إن الحمد للّه ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده اللّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا اللّه ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن شخصية قراقوش تعتبر شخصية مجهولة لكثير من الناس ، فهم لا يعرفون منها سوى المثل القائل فيها : « حكم قراقوش » الذى يطلقه الناس تعبيرًا عن ظلم ظالم أحمق متجبر تشبيهًا بقراقوش الذى هو فى مخيلتهم حاكم جبار مغفل .

هذا ما يعلمه الناس عن هذه الشخصية ، ولكن حين بحثنا فى أصل هذه الشخصية لم نجدها إلا شخصية ظلمها الناس ، وأن لصاحبها من الفضائل على الإسلام والمسلمين ما يستحق إظهارها وتنقية سيرة صاحبها من الغبار الكثيف الذى أحاط بها ونسج حولها نسيجًا مظلمًا جعلت منه مسخًا مشوهًا .

لذلك وجدنا حقًّا علينا الدفاع عن هذا الرجل، ومن ثم كانت هذه الدراسة للبحث فى شأن هذا الرجل لمعرفة حقيقته التى اتضح أنها حقيقة ظاهرة للعيان جلية مشرقة، ولكن طمستها أباطيل لُفِّقت زورًا وبهتانًا لهذا الرجل ، فأظهرته بالصورة التى هى الآن فى مخيلة أهل مصر والشرق .

وتلك الحقيقة هى التى جعلت كل من بحث فى شأن هذا الرجل قديمًا وحديثًا يتعجب ، كيف برجل بهذه السيرة العظيمة يصير فى مخيلة الناس الآن بهذه الصورة المشوهة المريعة ؟!!

كل هذا جعلنى ألملم أوراقى وأجمع أقلامى لأظهر حقّ مظلوم ظلمه قومه وأنكروا فضله ، فهو الذى عاون سلطانه صلاح الدين فى إسقاط الدولة الشيعية الخبيثة (الفاطمية) فى مصر وإنشاء الدولة الأيوبية السنية التابعة للخلافة العباسية ، وهو الذى دافع عن هذا البلد ضد الأعداء فى الداخل والخارج (شيعة – صليبيون) ، وهو الذى حصنها وأنشأ قلعتها (قلعة الجبل أو قلعة صلاح الدين).

ولا يظن أحد أنى جمعت سيرة هذا الرجل بسهولة ويسر ، فهذا الرجل رغم فضله العظيم إلا أن المصادر التاريخية للأسف الشديد قد ضنَّت علينا فى الحديث عنه ، فلم تذكر لنا من سيرته إلا متفرقات بقدر عظم الأحداث التى كان له دور فيها ، ولم تتحدث عنه حين تحدثت إلَّا لمامًا ، بل إن منها ما مرت عليه مر الكرام .

ومن لطائف القول هنا ، إنى حين كنت أُعرّج على فهارس الأعلام لمصادر هذه الدراسة للوقوف على المواضع التى ذكر فيها « قراقوش » كنت كثيرًا ما أجده مهملًا فى هذه الفهارس ؛ فإما أنها لم تذكر كل المواضع التى ذكر فيها اسمه فى الكتاب – وأحيانًا تقتصر على الصفحة المتحدثة عن السَّنة التى فيها وفاته فى كتب الوفيات – أو لا أجد له ذكرًا بالمرة فى الفهارس رغم أنك تجد ذكره مبسوطًا فى نفس الكتاب ، فكنت أمسك بقلمى لأثبت مواضع ذكره التى أهملت فى هذه الفهارس حسب ترتيبه الأبجدى بها .

ومع هذا لا أدعى لنفسى السبق فى الحديث عن هذا الرجل أو فى إفراد كتاب فيه ، فقد تكون سبقتنى فيه دراسات – لكنها لا تتعدى الكتابين أو الثلاثة – ولعل أبرزها على الإطلاق دراسة الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه « حكم قراقوش » ، ولكن قد يعيب هذه الدراسات أنها لم تتناول شخصية قراقوش من

منظورها التاريخى المستقل بذاتها ، فهذه الدراسات أخذت إما من منظور أدبى - كدراسة الدكتور عبد اللطيف حمزة - أو من منظور فكاهى بحت - ككتاب « الفاشوش فى حكم قراقوش » للسيوطى - أو أُدرجت ضمن دراسات أخرى احتلت فيها هذه الشخصية جزءًا يسيرًا ، لعبت فيه دور العنصر الواحد .

والسبب فى ذلك هو شح المصادر التاريخية فى الحديث عن شخصية هذا الرجل - قراقوش - فأدى ذلك إلى تمويه شخصية هذا الرجل ، مما جعلها تأخذ شكلًا هَيُولَانِيًّا متعدد الجوانب .

وأود أن أنبه أن الدافع لعمل هذه الدراسة رغم أنه كان فى محاولة الدفاع عن هذا الرجل وإظهار حقه ، إلا أننا آثرنا الموضوعية قدر المستطاع ؛ حتى لا نميل مع الهوى حيث مال ، ولكن مع الحق حيث كان .

ومن ثم أرجو من اللّه تبارك وتعالى أن نكون قد وُفقنا فى الدفاع عن هذا الرجل بالحق ، وأسأله أن ينفع بهذا الكتاب من يقرأه .

وآخر ما أقوله فى هذا المقام : إنى قد بذلت فى هذا الكتاب كل جهد حتى أخرج عملًا نافعًا كاملًا ، ولكن ما من كامل غير اللّه سبحانه وتعالى ؛ لذلك فما كان فى عملى هذا من خير ، فإنه من اللّه وحده ، وإن كان فيه من خطأ أو زلل ، فإنه منّى ومن الشيطان .

واللّه أسأل أن يُوفقنا للعمل لما يُحبه ويرضاه ، وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

أحمد خليل الشال

بور سعيد / الجمعة ١٨ ذو الحجة ١٤٢٠هـ

٢٤ مارس ٢٠٠٠م

الفصل الأول

قراقوش

اسمه – نسبه – نشأته

فى الحقيقة إن هالة من الغموض قد أحاطت بمولد ونشأة هذا الرجل ، شأنه فى ذلك شأن أغلب المماليك [١] الذين كانوا يُجلبون من بلاد متعددة ، أهمها بلاد القوقاز وآسيا الصغرى (أرض الترك) للخدمة فى الدولة الإسلامية ، بداية من الدولة العباسية وحتى نهاية الدولة المملوكية ، فكان هؤلاء المماليك يجلبون من بلادهم غلمانًا صغارًا للديار الإسلامية فيتم تعليمهم مبادئ الإسلام وحفظ القرآن ، فضلًا عن القراءة والكتابة ، وذلك حتى يصلوا إلى سن البلوغ ، فيتم نقلهم إلى التدريب العسكرى ، فإذا أتموه التحقوا بخدمة الجيش كجنود ، حتى إذا أظهر كفاءة أعتقه سيده فينسب المملوك إليه .

هذه حال كل مملوك فى هذا العصر ، ومن ثم فلا نظن أن تختلف نشأة هذا الرجل كثيرًا عن هذه الحال ، فكل ما تذكره المصادر عن نشأته بشكل خاص أنه كان فتى روميًا خصيًا ولد ببلاد آسيا الصغرى ، ثم التحق فى ظروف غامضة بخدمة الضابط أسد الدين شيركوه ، الذى كان يعمل بدوره هو وأخوه نجم الدين أيوب – والد صلاح الدين – فى خدمة آل زنكى [٢] .

---

(١) يعبر المؤرخون العرب عمن كان يؤدى أعمالًا عسكرية من العبيد ، بعكس لفظ العبد الذى كان يطلق للدلالة على من يخدم فى البيوت .

(٢) نسبة إلى عماد الدين زنكى ٥٤١ هـ ، صاحب الموصل وحلب فى الخلافة العباسية ، وتولى الأمر من بعده ابنه نور الدين محمود الذى واصل مسيرة أبيه فى جهاد الصليبيين .

وفى دمشق تسمى الفتى باسم بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدى . ويمكن أن نخرج من هذه التسمية بعدة استدلالات :

فقراقوش هو اسمه الأصلى ، وهو يدل على بيئة صاحبه الأولى ، فقراقوش لفظ تركى بمعنى : النسر الأسود ، وهو مكون من « قره » يعنى : أسود ، و« قوش » يعنى : طائر (١).

وأما تسميته بابن عبد الله ، ففيه دلالة على أنه لا يعرف له أب مسلم ، وأما وصفه بالأسدى فنسبة إلى أسد الدين شيركوه مولاه الذى أعتقه . فلما مات أسد الدين اتصل قراقوش بخدمة ابن أخى سيده صلاح الدين ، فصار يدعى بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدى الناصرى ؛ ليواصل مسيرة حياته العسكرية التى نشأ وترعرع فى أحضانها ؛ حتى ضرب به المثل فى الصبر والجلد والمثابرة ، ومُنح الرتب العسكرية المختلفة حتى صار أميرًا من أمراء الجيش الإسلامى الذى دك عروشًا وأقام عروشًا ، فيصير بهاء الدين قراقوش بعد ذلك دعامة من الدعائم الأساسية للدولة الأيوبية (٢).

* * *

---

(١) « حكم قراقوش » ، د. عبد اللطيف حمزة ، ص ١٤ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ١٤ ، ١٥ .

الفصل الثانى

قراقوش المظلوم

أصاب شخص قراقوش وسيرته ظلم عظيم من جراء افتراءات باطلة ألصقت به ، فكان ضحية أهداف وأغراض خبيثة ، منها محاولة النَّيل منه . وعلى الرغم مما قدمه قراقوش من أعمال جليلة خدم بها الإسلام والمسلمين شهد له بها التاريخ ، فكانت له بمثابة أنواط وأوسمة من أعلى درجاتها نقشت على صفحات تاريخه الناصعة بحروف من نور . على الرغم من ذلك إلا أنه أبى أكثر المبطلين إلا أن يجعلوا من شخصه أضحوكة تاريخية لعقلية غبية متسلطة ،لا يكاد يذكرها الناس إلا مقرونة بالهزء والسخرية ، إلى حد أنهم يتهمونه بالخبل والجنون حتى صار يُضرب به المثل فى الظلم الجاهل والتجبر الأحمق بقولهم : « حكم قراقوش » . وهذا كله خلاف الحقيقة تمامًا ، فهذه التهم الباطلة التى اتهم بها ، ما هى إلَّا خرافات صنعها الخيال بوحى من الباطل لا يجانبها شيء من الصواب ، بل هى اتهامات وأباطيل صنعت للتغريض به والنَّيل منه ، فألحقت به وهو منها براء .

مصدر الظُّلم :

وفى الواقع ، إن مصدر هذه الافتراءات الظالمة التى صنعت من هذا الأمير أضحوكة هو كتاب صَنَّفَهُ أحد الأدباء المصريين الذين عاصروا قراقوش بهدف النيل من هذا الأمير ، هذا المصرى هو الأسعد ابن مماتى (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) أحد كبار أدباء عصره ، وكان متوليًا مناصب عليا فى عهد الدولتين الفاطمية (العبيدية) والأيوبية ، وأصله

من نصارى أسيوط [١] ، أسلم فى عهد الدولة الأيوبية [٢] ، وله تصانيف كثيرة منها كتابه الذى فى شأن قراقوش ، والمسمى « الفاشوش [٣] فى أحكام قراقوش » ذلك الكتاب الساخر الذى شاع ذكره بين الأفراد والأمصار ، فانتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم بهدف التسلى والفكاهة ، حتى نسى الناس مؤلفه وحقيقة شخصية الكتاب ، فلم يعد أحد يذكر لقراقوش إلا ما ذُكر فى كتاب الفاشوش [٤] .

ثم لم يكد يمر ثلاثة قرون حتى يعقب هذا الكتابَ كتابٌ آخر بنفس العنوان تقريبًا لإمام جليل الشأن ، هو الإمام جلال الدين السيوطى . ويجدر التنبيه بأن دافع السيوطى لتصنيف هذا يختلف تمامًا عن دافع ابن مماتى فى هذا الشأن ، ففى الوقت الذى كان فيه هدف الثانى النَّيل من شخص قراقوش [٥] ، لم يكن الأول يهدف سوى التسرية والفكاهة كعادة العلماء فى ذلك الزمان [٦] .

ثم يعقب هذين الكتابين كتاب أخير يحوى نفس مضمون الكتابين السابقين ولكن بعنوان مغاير هو « الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » ولا يعرف مصنفه .

وفى حقيقة الأمر لم يصلنا من هذه الكتب عبر التاريخ غير كتاب السيوطى ، أما الكتابان الآخران ، فقد نقلهما الدكتور عبد اللطيف حمزة

---

(١) « حكم قراقوش » ، ص ٤٤ . (٢) « البداية والنهاية » ، ابن كثير ، ج ١٣ ، ص ٤٦ .

(٣) الفشوش : الأحمق أو الغبى .

(٤) سوف يأتى ذكر دوافع ابن مماتى لتصنيف هذا الكتاب لاحقًا .

(٥) ودليل ذلك الكيد قول ابن مماتى فى مقدمة كتابه الفاشوش : « إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم ، والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يرد على كلمته ، ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكمًا ما أنزل الله به من سلطان ، الفت هذا الكتاب لصلاح الدين عسى أن يريح منه المسلمين » .

(٦) أيضًا سيأتى تفصيل ذلك بالأدلة لاحقًا .

فى كتابه « حكم قراقوش » اعتمادًا على بحث سابق عليه زعم صاحبه [1] أنه وجدهما ، ولكن لا نرى جواز تأكيد زعم كازنوفا بعثوره على نسخة ابن مماتى ، حيث إن الدكتور عبد اللطيف لم ينقل سوى ثلاث عشرة حكاية فقط ، وهى عدد قليل جدًّا أدت لترجيح الظن عن الدكتور نفسه أن النسخة الأصلية للكتاب لا تزال ضائعة حيث يقول : « فإنا لا نستطيع أن نخفى عجبنا من ظاهرة أخرى فى كتاب ابن مماتى وهى اشتماله على عدد بسيط من النوادر التى نسبها إلى بهاء الدين قراقوش ، فهل كان كتاب الفاشوش لا يشتمل على أكثر منها ؟ وهل ضاق خيال ابن مماتى فلم يتسع لأكبر من هذا العدد ؟ الواقع أننا نميل إلى الظن بأن النسخة الأصلية من كتاب الفاشوش لابن مماتى لم يُعثر عليها بعد » [2].

وقد رأينا قبل أن نعرض لحقيقة هذا الأمير لننصفه أن نعرض أولًا لهذه الحكايات والنوادر التى نسبت إليه ؛ وذلك حتى نُرِى القارئ مدى مخالفة هذه الحكايات للعقل من أن تصدر من رجل كان صلاح الدين يستنيبه على أمصاره من جهة ، وحتى نقف عليها لتفنيدها من جهة أخرى .

هذا وقد جمعنا كل ما وقفنا عليه من نوادر وحكايات نسبت لهذا الأمير عدا المكرر ، وحكايتين لم نجد حاجة لذكرهما لما فيهما من فحش :

* * *

(١) هو المستشرق كازنوفا ، باحث فرنسى فى تاريخ العصور الوسطى وأدبها ، حاضر فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥م ، وتوفى سنة ١٩٢٦م .

(٢) « حكم قراقوش » ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

الحكاية الأولى[1]

جاءته امرأة سوداء لها جارية تركية بيضاء فقالت له : يا وزير إن هذه جاريتى قد أساءت علىَّ الأدب فأدبها ، فنظر إلى بياض الجارية التركية وسواد المرأة ، ثم قال لها : أولك خلق الله تعالى جارية تركية بيضاء وأنت جارية سوداء ، ما يقول ذلك إلا مجنون أو مدهوش أفلا تكون هذه البيضاء جارية لك يا سوداء . يا غلمان اجعلوا هذه التركية البيضاء سيدة لهذه السوداء ، والسوداء جارية للتركية ، فإن أرادت بيعك باعتك أو أعتقتك ، فقالت السوداء : أما انصفت يا وزير ؟! فقال : هكذا يكون الإنصاف وما أنا مجنون ولا مدهوش ، انصرفى عنِّى يا سوداء يا قبيحة المنظر لا خير فى الأسود ولوكان فى المسك والعسل . فلما رأت السوداء ذلك الحكم الذى لا مفرَّ عنه أخذت تتعطف بخاطر البيضاء التركية وتقول لها : أعتقينى إلى وجه الله تعالى وأنا أعطيك كذا وكذا ولا أشتكيكى أصلًا ، فقالت له التركية : إنى قد أعتقت جاريتى السوداء ، فقال جزاك الله خيرًا انصرفى عنِّى بجاريتك ولا تعودى ثانيًا .

* * *

الحكاية الثَّانية[2]

اتفق أنه وضع قميصه على حبل فوقع القميص على الأرض ، فتصدق بمائة دينار ، وقال : الحمد لله الذى حفظنى من الضرر لوكنت لابسًا له لتكسرت ، وقال : هذا فداء لنفسى من الضرر .

* * *

---

(١) عن « النوادر الشعبية المصرية » ، للدكتور إبراهيم شعلان ، والكتاب يضم حكايات الفاشوش فى حكم قراقوش ، للسيوطى كاملة ، طبع المطبعة الخصوصية ببولاق سنة ١٣١١ هـ برقم ١١٨٨ تاريخ تيمور .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

الحكاية الثَّالثة [1]

كان فى كل سنة يتصدق على الفقراء بمال جزيل ، ففى بعض السنين جاءته امرأة ، وقالت له : إن زوجى قد مات ولا كفن له ولا مال عندى أكفنه منه فاعطنى كفنه أو ثمنه ، فقال لها : مال الصدقة السنوية قد فرغ فلو جئت قبل فراغه كنت أخذت كفنه ، فإذا جاء ميعاد الصدقة فى السنة الآتية فتعالى نعطيك كفنه أو ثمنه إن شاء الله تعالى ، فقالت : وهل يقعد الميِّت سنة من غير تكفين ولا تعفين ؟ فقال لها : الميت زوجك والأمر لك ، فإن شئت فادفنيه وإن شئت فى بيتك خليه ، فإن دفنتيه ريحتيه وإن خليتيه تؤذيه ، فقالت له : هذا شىء لا يجوز ، فقال لها : وأنا ما كلفنى الله بإعطاء صدقة الزكاة لسنة جديدة لم يأت ميعادها ولم يوجد عندى مالها . يا غلمان أخرجوا هذه المرأة ، فإنها قبيحة وتحب الفضيحة ولا تقبل النصيحة قولوا لها : تدفنه بثيابه وعند مجىء الوقت الذى تعرف فيه الصدقة تأخذ كفنه وتكفنه به فى قبره أو تلبسه هى بدلًا عنه وهذا آخر الكلام والسلام .

* * *

الحكاية الرابعة [2]

رأى قراقوش رجلًا كرديًّا يأتى بفاحشة مع حمارة ، فقال :

- حِدِّوا هذا الرجل .

فَحَدُّوه .

ثم قال :

- وحِدِّوا الحمارة أيضًا .

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٦٦ .

(٢) « الفاشوش فى حكم قراقوش » ، السيوطى ، مكتبة الإيمان سنة ١٩٩٧ م ، ص ٣٢ .

فقالوا له : ما ذنبها ، وهى دابّة خرساء لا تتكلّم وليس لها عقل ، ولا يوجد فى الشرع حد للحمير ؟!

فقال :

– وهل وجدتم فى الشرع أحدًا يفعل ما فعله مع الحمير ؟! .. حِدُّوها لأنها لو ما كان لها غرض لرفصته برجلها أو عضته بأسنانها عندما اقترب منها ، ولَمّا وجد منها ميلًا له ، وما ظنَّته حمارًا من فصيلة الحمير فوقفت له وتشدقت بفمها كما تتشدق للحمار عندما يكون لها رغبة ، وقد أمرتكم بأن تنفّذوا ما قلت كلما رأيتم أحدًا يفعل ذلك مع حمارة أو بغلة ، حتى لا يعم الفساد بين العباد ، وتقل ذرية البنى آدميين وتكثر ذرية الحمير ، وحتى لا ينفتح بابٌ للعصاة العازبين فيستغنون بذلك عن الزواج ليوم الدين .

* * *

الحكاية الخامسة [1]

توجه جماعة من الفلاحين إلى قراقوش واشتكوا له نقص محصول الزرع وقالوا :

– يا مولانا الأمير .. البرد شوش على الزرع هذه السنة ، فافرج علينا واعفنا من الخراج الذى ندفعه .

فكان جوابه لهم بعد سكوت طويل :

– كيف أعفيكم من الخِراج ؟... لما رأيتم البرد شديدًا ، كان عليكم أن تزرعوا صوفًا ليدفئ ما زرعتموه ، ولكنكم استهنتم بسلطانكم وبالزراعة ، ولم تفتحوا عيونكم جيدًا . أين السيَّاف يضرب أعناقكم ؟

ولم يقدر أحد من جلسائه أن يردَّه فيما حَكَمَ .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٣ .

الحكاية السّادسة [1]

ذات يوم جاءه رجل أجرود نتف بعض لحيته رجلان فضربهما ومزّق ثيابهما ، فشكياه إلى قراقوش ، فلما رآه من غير لحية وكل منهما بلحية كبيرة ، فقال : أما الظلم منكما عليه ظاهر ، فإنكما نتفتما لحيته وجعلتماه بلا لحية كالولد الصغير ، فأنتما تعديتما عليه وتشتكيانه احبسوهما ولا تخرجوهما من السجن حتى تصير لحيته مثل لحيتيهما ، فقالا : إنه أجرود لا لحية له ، فقال : كل الناس لهم لحية وهذا يكون مخلوقًا بلا لحية ؟ هذا شيء نادر لا حكم له ، وإنما الحكم للغالب وغالب الناس بلحية ، فأنتما نتفتما لحيته ، فلما أيقنا بالسجن تعطفا بخاطر الأجرود حتى قال له : تركت أجرى على الله فأطلقهما ، وقال : انصرفا عنى . انقطع الكلام والسلام .

* * *

الحكاية السّابعة [2]

تسابق هو مع رجل كردى على فرسه فسبقه الكردى بفرسه ، فقال لخادمه : والله لا نطعم فرسنا شيئًا فى هذا الأسبوع مجازاة لها على تأخيرها ، فقال له : تموت جوعًا ، فقال له ثانيًا : علّق عليها ولا تقل لها : إنى قلت لك ذلك حتى لا يقال : إنى حلفت كاذبًا .

* * *

---

(١) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٦٨ .

الحكاية الثّامنة [1]

وهى أن شخصًا شكا له مماطلة مديونه فى حقه ، فقال المديون : يا سيدى أنا رجل فقير وكنت كلما تحصلت على شىء آتيه به فلم أجده فأصرفه على نفسى وعيالى ، فجاءنى الآن وطالبنى وما معى شىء .

فقال قراقوش : احبسوا صاحب الحق حتى أن المديون إذا تَحَصَّل على شىء يأتى به فى الحبس فى المكان المعلوم ليدفعه له ويظهر صدق المديون من كذبه حتى أنه لم يبقَ له وجه فى قوله لم أجده .

فقال صاحب الحق : يا حضرة الوزير تركت حقى وأجرى على ربِّى حيث إنى لم أجد نصيرًا خرب الله بك البلاد وأذل على يديك العباد وتركه ومضى ممثلًا لحكم القضا .

* * *

الحكاية التاسعة [2]

وهى أن جنديًّا نزل فى مركب وكان فيها رجل فلاح معه زوجته ، فغمز الجندى زوجة الفلاح فشتمته فضربها وكانت حاملًا ، فسقطت ابن تسعة أشهر ، فشكاه الفلاح إلى قراقوش ، فقال للجندى : خذها عندك وأطعمها واسقها حتى تصير فى تسعة أشهر ، ثم ردها لزوجها كما كانت ، فقال الجندى : سمعًا وطاعة ، فقال الفلاح : يا وزير تركت أجرى على الله ، وأخذ زوجته ورجع إلى بلده ، فقال له : جزاك الله خيرًا ، هكذا تكون مروءة الفلاحين الحرين .

* * *

---

(١) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٣٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٦٩ .

الحكاية العاشرة [1]

وهى أنه كان عنده باز [2] فى قفص مثل الدرة ، ففتح القفص ليضع له ماء وطعامًا ، فطار الباز من القفص ، فقال للغلمان : اغلقوا باب النصر وباب زويلة عاجلًا ، فإنهما إذا كانا مغلقين لا يجد له موضعًا غيرهما يطير منه ، فقالوا : يا حضرة الوزير إلى السماء يطير ، فقال : صدقتم ، ولكن باب السماء لا يجب لغيه ، فإن شاء يرده لنا فى الصباح أو فى العشية .

* * *

الحكاية الحادية عشرة [3]

وهى أن امرأة شكت له ولدها أنه لا يطيعها ويخالفها ، فحبسه وحلف أنه لا يطلقه إلا بعد سنة تأديبًا له حيث خالف أمه التى حملت به تسعة أشهر ، وأرضعته ثديها سنتين ، وغسلت له ثيابه ومسحت له أوساخه ، وسهرت به الليالى ، وأجاعت أكبادها وأتعبت فؤادها فما جزاؤه إلا الحبس والجوع وعدم الهجوع سنة كاملة ليتوب أولاد الزانيات عن عقوق الوالدات ، وتنحسم مادة الشكاوى ، وتندفع عنا القبائح والبلاوى ، فلما توجهت المرأة إلى بيتها عَسُر عليها أمر ولدها ، فجاءت إلى السَّجان بعد مضى ستة أيام ودفعت له بعض الدراهم ليطلقه لها من السجن ، فقال لها : اكتبى قصته فى قرطاس وقولى : إن السنة قد فرغت وهو محبوس يا سيد الناس وأنا امرأة فقيرة ليس عندى له معروف وإن كذبتنى فاسأل الناس ، فكتبتها وقدمتها له ، فقال لها بعد القراءة : كذبتى أنا لست مدهوشًا ولا ناسيًا قد بقى من السنة هذا اليوم ، فإن طلقته قبل الميعاد أصير كذَّابًا بين العباد فى البلاد ، فقالت : يا سيدى

---

(١) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

(٢) **الباز** : الصقر .

(٣) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٣٧٠ .

اليوم طويل ، فقال لها : اصبرى راح الكثير وبقى القليل ، فإنى حلفت ألا أطلقه إلا بعد سنة ، فإن لم تصبرى حتى يمضى اليوم حبسته سنة أخرى وحبستك مع المجانين أنت الأخرى ، فرجعت وأتت له ثانى يوم فى الديوان ، فلما رآها ، قال : من أنت من النسوان ؟ قالت : أنا أم الولد المحبوس ، وقد مضى ذلك اليوم يا وزير ودخلنا فى يوم جديد يا أمير ، فقال لها : خذيه لا تعودى به إلينا ثانى مرة ولو كسر على رأسك الجرة ، فأخذت ابنها ومضت .

* * *

الحكاية الثَّانية عشرة [١]

اشترى ابن قراقوش بغلًا بألف درهم ، ثم عرضه عليه وعرَّفه بالثمن ، فقال :

- غالٍ ، رده لصاحبه .

ولما رأى الحاضرون ذلك ، وعرفوا أن ابنه راغب فى البغل ، قالوا :

- لأى شيء ترد هذا البغل الخفيف اللطيف ؟

فقال :

- لا يساوى ألف درهم .

فقالوا :

- يا وزير ، لقد اشتراه بتسعمائة وتسعة وتسعين درهمًا فقط .

فقال :

- إن كان ثمنه كما قلتم فليس غاليًا .

ثم نادى على غلمانه وقال :

---

(١) « الفاشوش فى حكم قراقوش » ، ص ٤٣ .

– ادفعوا لصاحب البغل ثمنه ، وقولوا للولد : لقد سامحك هذه المرة ، ومن الآن فصاعدًا لا تشتر شيئًا حتى تحضر البائع بما يبيعه عندى هنا لأنك صغير وعقلك قصير ، والناس يضحكون عليك ، فالسوقية كلاب سلوقية لا يعرفون الله بكرة وعشيًا .

* * *

الحكاية الثَّالثة عشرة [1]

كان بمصر رجل تاجر غنى وكان بخيلًا على عائلته ، فكان ولده يقترض من الناس ما يلزمه لمصروفه على نفسه ، ويوعد الناس أن يدفع لهم الدَّين بعدما يصير المال له عند موت أبيه ، فلما طال الزمن عليهم ولم يمت أبوه اتفق ولده مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة ، فدخلوا عليه وكتَّفوه وغَسلوه وكفَّنوه ووضعوه فى النَّعش قهرًا عنه ، وهو يصيح بأعلى صوته فلا يُغاث ، وأتوا بالفقهاء وأولاد الكتاب يرفعون أصواتهم حول نعشه لئلا يسمع الناس صوته ، واستمروا على ذلك حتى وصلوا إلى محل الصلاة عليه ، فاتفق أن قراقوش كان مارًّا فنزل وصلى عليه (لأنها وظيفة السلطان أو تابعه) ، فلما عرف الميِّت فى نفسه أنه قراقوش فرح وقال : الحمد لله جاءنى الفرج ، فقام وقعد فى النَّعش ، وقال : يا وزير السلطان أنا لست بميت وأخبره بقصته ، وقال له : أرجو خلاصى من ولدى ومجازاته على حسب ما فعل معى هذا الفعل الذى لا يرضى الله ولا يرضى رسوله ﷺ ولا يرضى السلطان ولا يرضى وزيره ولا يرضى المسلمين ولا الناس أجمعين ، فإن ولدى يريد دفنى بالحياة ليأخذ مالى قبل مماتى .

فقال للولد : كيف تدفن والدك بالحياة قبل موته ؟

فقال الولد : قد كذب على وزير السلطان ، فأنا ما غسلته ولا كفنته

---

(١) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٣٧١ .

ولا وضعته فى نعشه إلا بعد تحقق موته ، وهؤلاء الحاضرون يشهدون بذلك ، فلما سألهم ، قالوا زورًا : نشهد بما قاله ابنه ، فالتفت قراقوش إلى الميِّت ، وقال له : هل أصدقك بأنك حى لا ميت وأكذب الشاهدين عليك بأنك ميت هذا أمر غير ممكن ، طاوعهم وسلم لهم أنك ميت ودعهم يدفنونك بلا رذالة لئلا تطمع فينا الموتى ، ويمتنعون مثلك عن الدَّفن بعد هذا اليوم .

فقال له : يا وزير أنا حى وأنت تسمع كلامى ، والميت لا يتكلَّم ولو فرضنا أنى ميت كما قالوا ، فأنا الآن حى وأنت حى ، فقال : ليس هذا اليوم يوم القيامة الذى تحيا فيه الموتى يا ثقيل يا جاهل يا مغفل ، احملوه وادفنوه قهرًا عنه ، وقولوا : دفنَّاه بأمر قراقوش .

* * *

الحكاية الرابعة عشرة [1]

أحضروا له غلامًا مقتولًا قتله الركبدار ، فنظر إلى رجل حداد ، فقال : اشنقوه ، فإنه أوجع رأسنا من طرقه الحديد على السندان ، ولئلا يعود شرر النار على الجار فتحرق له الدار .

فقالوا له : هذا حدادك يصنع إلى خيلك الحدادى ولو شنقته لتلفت أرجل خيلك من قلة الحداد الذى يعمل لها الحداوى ، ثم تركه ونظر إلى رجل قفاص ، فقال : لا حاجة لهذا القفاص ، اشنقوه بدل الركبدار والحداد .

فقال : يا سيدى وما ذنبى ؟ فقال : وما ذنب الغلام ؟ فقال : ما قتلته ، فاقتل من قتله ، فقال : إن الذى قتله نافع وأنت غير نافع ، فقال : أنا نافع ، أصنع الأقفاص للناس يضعون فيها الفراخ الصغيرة

(١) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٣٧٢ .

والكبيرة والحمام والأَسرَّة للجلوس والنوم عليها وغير ذلك ، فقال : دعوه وفتشوا على غيره يكون خاليًا من المنافع واشنقوه بدل الركبدار .

فقال أهل الغلام : تركنا أجرنا على الله ولا نقتل الناس بدل ابننا من غير ذنب ، حسبنا الله ونعم الوكيل فيمن ظلمنا ، فقال : أنا ما ظلمتكم ، الظالم لكم من قتل ابنكم ، وهل يصح أن أخرب البلد بقتل الناس النافعين بدلًا عن ابنكم يا ظالمين ؟! انصرفوا عنِّى بعقلكم السخيف واسكنوا الريف .

* * *

الحكاية الخامسة عشرة (١)

أتوه بلص معه قماش قد سرقه من صاحبه ، فلما نظره قال لهم : ما لكم تكذبون على هذا الغريب ؟! انفوه بما معه من البلد ولا تأخذوا القماش الذى معه ، فإنه من بضاعته التى أتى بها ليبيعها عليكم فاشتروها منه وإلا انفوه من البلد واقطعوا دابر اللصوص الأغراب ، وإن تاب يغفر الله لمن تاب ، واكرموا الغريب يصير لكم ومنكم قريب .

* * *

الحكاية السَّادسة عشرة (٢)

جاء شاب مضروب يشتكى من ضربه ، فأرسل معه من يحضر الضارب ، فلما وصل الخبر إلى الضارب بادر ووقف بجانب قراقوش ، فلما أتى المضروب مع المرسل من طرف قراقوش ، قال الضارب : هذا هو الذى ضربنى حتى أشرفت على الموت ، فقال : احبسوا هذا الرجل الذى جاءنى أولًا ، فإن الذى تشتكيه قد سبق إلى الشكاية ، وقد تأخرت مع المرسل معك فى حضوره ، فقال : يا سيدى كنا ندور عليه

---

(١) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٢٧٣ .   (٢) المرجع نفسه ، ص ٣٧٣ .

فما وجدناه واسأل رسولك ، فقال : لا وجه لك فى الشكاية (الكف لمن سبق) فلا أسمع قولك ، فإنك لما تأخرت سقط حقك .

فقال الناس : لا نقعد فى البلد ما دمت حاكمًا فيها ، فقال : أنتم لئام ولا يناسبكم إلَّا هذا الحكم والسلام ، فإن قعدتم أو رحلتم تسترح منكم الحمام يالئام ، انصرفوا عنِّى بلا كلام .

* * *

الحكاية السَّابعة عشرة [1]

توقف النيل أيامًا ، فلما أخبره الناس بذلك توجه إلى النيل فرأى البلاليص والطشوت والحمير والجمال والبغال عليها القِرَب مملوءة من النيل ، فتعجب من ذلك ، وقال : إنما توقف النيل من هذه الآفات ، فلو امتنعت هذه الأشياء كلها لطلع النيل . يا غلمان نادوا فى المدينة وقولوا : قد أمر قراقوش بأنه لا يملأ أحد من النيل إلا جملًا واحدًا وإن رأى أزيد من ذلك شنق من خالف أمره ، ففعلوا ذلك ممتثلين لأمره ، فطلع النيل على الأرض ، فقال لهم : الويل لكم إذا عدمتمونى انظروا كيف رأيتم رأيى فيكم ، فما هو إلا رأى مبارك .

قال أهل الفطنة : إن صح هذا كان استدراجًا ، فهى نظير ما وقع من فرعون فى قصته المشهورة حيث توقف النيل عن طلوعه على الأرض .

* * *

---

(١) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٣٧٣ .

الحكاية الثّامنة عشرة [1]

أتاه شيخ وصبى أمرد يختصمان فى دار وكل منهما يقول : هى دارى ، فقال للصبى : هل معك كتاب يشهد لك بأن الدار حقك دون ذلك الرجل ؟ فقال : لا لأنها دار أبى وأنا مولود فيها ، ومات أبى وتركها لنا ، فقال : إن لم يكن معك كتاب يشهد لك بها فهى للشيخ الكبير ، فإذا صار عمرك مثل هذا الرجل الكبير ندفع لك الدار انصرفوا عنِّى قد حكمت بينكما والسلام .

* * *

الحكاية التاسعة عشرة [2]

جاء غلام ومعه ديك ، فلما أحضروه بين يديه قال : ما هذا ؟ قال الولد : هذا ديكى ألعب به ، فقال له : كيف تعذبه ولا تطعمه ؟! أما علمت أنه لو غضب عليك من جوعه وعطشه وحبسه فى يدك نقرك فى عينيك وقلعها فكنت تشتكى الديك ؟ يا غلمان خذوا منه دية عينه فإننا قد نصحناه وحفظناها له من قلع الديك لها ، فقال : يا سيدى عينى سليمة ولا مال لى أدفعه فى دية عينى ، فقال : خذوها من أبيه لأنه لا يعرف تربيته ، فقال : يا سيدى وما ذنب أبى ؟ قد ثبت من هذه التوبة ، أنا أروح أذبح الديك وآكله ، فقال : كأنى أنا قطعت أجل الديك ، اضربوه عشرين جلدة قيمة ثمن الديك وإنى عفوت عنك والله يجازيك .

* * *

---

(١) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٣٧٤ .   (٢) المرجع نفسه ، ص ٣٧٤ .

الحكاية العشـرون [1]

قيل : وأتوه بمحضر فيه شهادة المسلمين بإثبات دار فى خط قصر الشمع . فنظر عند ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش فى المحضر ، وقال : يا هؤلاء ، أكملتم المحضر بخط رئيس اليهود ؟ فقالوا : لا . قال : هذا كله زور وبهتان ومحال ، ورمى المحضر من يده .

* * *

الحكاية الواحـدة والعشرون [2]

بات قراقوش ليلة عند قاضى المطرية ، فأكرمه القاضى وقدَّم له قراقيشًا وزيتونًا ، وعندما عزم قراقوش على الرحيل ، قال للقاضى :

– إذا أصبحت فى الغداة تعال إلينا بالقاهرة .

فلما أصبح القاضى ركب مهرته وذهب قاصدًا قراقوش ، ولما وصل أبصر حصان قراقوش المهرة فوثب عليها ، ورأى ذلك قراقوش وتأذَّى منه ، فأمر بوضع القاضى فى الحبس سنة ، ثم أخرجه بعد سنة واستخدمه على مخازن الغلال ، ثم جاءه بعد موعد الحصاد وقال له :

– اعمل لنا حساب القمح ، والشعير ، والفول ، والحمص يا فقيه .

فكتب القاضى الحساب فى صحيفة واحدة وجاء بها ، ولما رأى قراقوش صحيفة الحساب ، قال له :

– ما هذا ؟ ... خلطت القمح بالشعير بالفول بالحمص .. يا غلمان حطُّوه فى السجن .

وظل بالحبس سنة ثانية .. وصادف أن دخل الحبس معه رجل

---

(١) « حكم قراقوش » ، ص ٦٠ .

(٢) « الفاشوش فى حكم قراقوش » ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

نصرانى ، لما عرف حكايته أشار عليه لكى يخرج من الحبس أن يكتب حساب كل صنف من الأصناف التى ذكرها قراقوش فى صحيفة منفردة .

فكتب القاضى حساب القمح وحده فى صحيفة ، ثم بعثها إلى قراقوش ، ثم بعد شهر كتب حساب الشعير وبعث إليه بالصحيفة ، وبعد شهر ثالث بعث إليه بالصحيفة التى بها حساب الفول ، ثم فى الشهر الرابع بعث إليه بصحيفة الحمص ، ولما اجتمع كل الحساب عند قراقوش ، قال للقاضى :

– تعبت نفسك يا فقيه . نقَّيت هذا من هذا وذاك من ذلك . زفُّوه فى المدينة .

فزفُّوه فى المدينة ، وبعدها حلف القاضى ألا يبقى فى خدمة قراقوش ، واعتزل فى داره إلى أن مات .

* * *

الحكاية الثانية والعشرون [1]

وأتاه رجل نصرانى ، فخاف أن يدخل بدواته الأبنوس السوداء ، فيقول الأمير : « صبحتنا بالسواد » ، فجعلها فى خرقة ، فسالت الليقة على ساق النصرانى ، فقال له قراقوش : ويلك ! مما تغلط فى دفاتر مولانا السلطان وتلحسهم (أى تلحس الأغلاط) صارت بدلتك سوداء !

يا غلمان : ودوه إلى الحبس حتى تبيض بدلته ، ثم نخلصه !

* * *

(١) « حكم قراقوش » ، ص ٦١ .

الحكاية الثالثة والعشرون [1]

سُرق مال فى زمان قراقوش ، فقال لأصحاب المال المسروق :

– الحارة بتاعتكم لها باب ؟

فقالوا :

– نعم .

فقال :

– ائتونى به ، ففعلوا وجاءوا بالباب أمامه .

فقال :

– مدّوه (أى اضربوه) .

فقالوا :

– يا مولانا ، هذا خشب لا يعْقل !

فقال :

– افعلوا ما آمركم به .

ففعلوا وضربوا الباب ، ثم نزل قراقوش ووضع أذنه بجانب الباب ، وأخذ يوشوشه ، ولما فرغ ، قال لهم :

– اجمعوا لى باقى أهل الحارة .

فلما أحضروهم ، قال :

– الباب بخبرنى أن الذى سرق المال على رأسه ريشة .

وكان السارق واقفًا بين الناس ، فرفع يده إلى رأسه ، فرآه قراقوش ، فقال :

– هاكم السارق .

فأخذوه وضربوه حتى اعترف بسرقة المال ، وردَّه إلى أصحابه .

(١) « الفاشوش فى حكم قراقوش » ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

الحكاية الرابعة والعشرون [1]

ومدحه رجل بقصيدة ، وأنشدها بصوت طيب ، فقال له قراقوش : يا مقرئ ! لقد قرأت طيبًا ، وأنا أريد أن أخرز هذه القصيدة على ذراعى ، فأنت مدحتنا ، ونحن دعونا لك ، فجزاك الله عنا خيرًا !

فقال الشاعر : وأنت فلا جزاك الله عنا خيرًا !

فقال بهاء الدين : يا هذا ، كأنى أراك جائعًا ، اعطوه مائة أردب قمح .

فأخذها الشاعر وانصرف .

* * *

الحكاية الخامسة والعشرون [2]

تقدم جماعة إلى قراقوش ومعهم قتيل ، وثور ، ورجل مكتوف اليدين ، وقالوا :

– يا أمير إن هذا الثور مال على هذا الرجل فقتله ، وهذا الرجل الذى كتَّفناه هو مالكه ونريد حكمك .

ففكر قراقوش ساعة ، ثم أمر بشنق الثور وإطلاق مالكه .

فقالوا :

– ما هذا حكم الشريعة !

فقال :

– لو جرى هذا فى زمن فرعون ما فعل غير هذا ، فلا بد من شنق الثور وهو القاتل ولا يحل لى أن أقتل غير القاتل .

(١) « حكم قراقوش » ، ص ٥٨ .   (٢) « الفاشوش فى حكم قراقوش » ، ص ٥٤ .

الحكاية السادسة والعشرون [1]

ودخل عليه رجلان ، وادعى أحدهما على الآخر أنه عض أذنه ، فسأله عن ذلك ، فقال : بل هو عض أذن نفسه ، فقام السلطان ودخل الحريم ، وجلس على كرسى ، وصار يلتفت لبعض أذنه ، فما وصل إليها ، ومال به الكرسى ، فوقع على يده فانكسرت ، فخرج وهو بهذه الحالة ، وأمر بضرب المدعى عليه ، وقال : أنت الذى عضيت أذن الرجل هذا ، وكسرت ذراعى زيادة على ذلك !

* * *

وخلاصة ما نلاحظه هنا كذلك ، أن هذه الحكايات تصف قراقوش بأنه سلطان ، ولكنها تتمعن فى وصفه بالبله والعته ، بأكثر مما وصفته الحكايات التى نسبت إلى ابن مماتى نفسه .

* * *

(١) « حكم قراقوش » ، ص ٧٠ .

الفصل الثالث

التاريخ يدافع عن قراقوش

ونأتى الآن إلى محطة نسعى فيها لإنصاف هذا المظلوم وإظهار حقيقته بكشف الغبار الذى أحيط به حتى نوفيه حقه الذى هُضم عبر التاريخ رغم أن التاريخ نفسه يشهد بذلك وهذا هو ما سنحاول عمله ، بعرض شذرات من تاريخ هذا الأمير الصالح ، ثم بتسجيل شهادات العدول من أهل العلم وغيرهم له ، ثم نقض ما نُسج حوله من أباطيل وحكايات مفتراة عليه .

١ - قراقوش المجاهد :

ذكرنا أن نشأة بهاء الدين قراقوش كانت نشأة عسكرية ، تربى خلالها فى ظلال رماحها وسيوفها وبين نقع جيادها ، شهد له الجميع بالبأس وقوة الشكيمة ؛ حتى يذكر عنه أن رجال الجيش فى دمشق قد أنسوا منه فى بدء حياته معهم رشدًا ، أو شدة ، وصلابة ، وقدرة على العمل بجَلَدٍ ومثابرة ، فأدنوه منهم ومنحوه الرتب العسكرية حتى أصبح أميرًا من أمراء جيش أسد الدين شيركوه [١]، وهو لا يدرى أنه سيكون يومًا أميرًا على مصر نفسها ، نائبًا عن أعظم سلطان عرفته مصر فى تاريخها وهو صلاح الدين .

وكان أول دخول لقراقوش مصر بصحبة قائديه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين عندما كانت أحوال مصر فى عهد الدولة العبيدية (الفاطمية) متدهورة فى ظل صراع وزيرى العاضد [٢] « شاور » ،

---

(١) « حكم قراقوش » ، ص ١٥ .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن المستنصر آخر الخلفاء الفاطميين ، كانت =

و « ضرغام » [1] ، حيث كان يرغب نور الدين صاحب الشام فى استغلال ضعف مصر [2] وتوحيد مصر فى الشام بهدف تطويق الفرنجة [3] .

ومن عجيب أمر هذا الجيش الذى أنفذه نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه أن صلاح الدين - الذى كان عمره يومئذ خمسة وعشرين عامًا - كان يخرج فى كل مرة مع عمه مكرهًا وكأنه مساق إلى الموت [4] ، وهو لا يدرى أنه ستقوم له أعظم دولة تحمل اسمه [5] .

وغاية ما نريد أن نخرج به من هذا هو أن جيش شيركوه قد أبلى بلاءً حسنًا فى مقاومة شاور وأعوانه من الصليبيين الفرنجة الذين كان شاور قد استعان بهم فى مواجهة شيركوه ، حتى أن المصادر تذكر من مآثر هذا الجيش وشجاعته أنهم نكلوا بعمورى الصليبى ملك بيت المقدس فى حملة شيركوه الثانية على مصر رغم قلة عدد العسكر آنذاك

= وفاته سنة (٥٦٧ هـ) هى نهاية الدولة الفاطمية الشيعية بمصر ، وقد سقطت على يد صلاح الدين الذى دعا بعد موته للخليفة العباس لتعود مصر للمذهب السنى .

(١) كان هذان الرجلان يتنازعان كرسى الوزارة ، فاستعان شاور بنور الدين الذى أرسل بدوره جيشًا بقيادة شيركوه واستعان الآخر - ضرغام - بالفرنجة ، ولكن غدر شاور بنور الدين مما أدى لطمع الفرنجة فى مصر فكانت حملات شيركوه تذهب وتعود من وإلى مصر حتى كانت ثلاث حملات كان فى آخرها قتل شاور واستتباب الأمر فى يد شيركوه ، ثم وفاة العاضد وانهيار الدولة الفاطمية وميلاد الدولة الأيوبية .

(٢) حيث كانت الدولة الفاطمية فى مصر تلفظ أنفاسها الأخيرة ، فقد دب فيها الضعف حتى أمست مجرد ذكرى سالفة كدولة كانت ثم صارت . فأفل نجمها وخبا بريقها ، حتى يذكر أنه حين دعا صلاح الدين فى آخر زمان العاضد للخليفة العباس معلنًا زوال مصر الفاطمية لم يعبأ أحد بهذا .

(٣) وهم الصليبيون الذين كانوا محتلين لبيت المقدس آنذاك .

(٤) وقد ورد ذلك على لسان صلاح الدين نفسه بقوله : « خرجت مع عمى كارهًا وأنا كمن يقاد إلى المذبح » ، وقال أيضًا بعدما لاقى ما لاقاه من حصار الصليبيين له فى الإسكندرية : « والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها » .

(٥) الناصر صلاح الدين الأيوبى ، للدكتور عبد المنعم ماجد ، ص ٥١ .

حيث تقول المصادر : « فحاربهم شيركوه وهزمهم .. ونجا عمورى بحياته بمعجزة ، وكان هذا من أعجب الانتصارات لقلة عسكر شيركوه الذين هزموا شاور والصليبيين معًا ، إذ صمم جنده ألا يسلموا مصر للكفار » [1].

هذه كانت حياة قراقوش الأولى ، فهو لم يولد أميرًا مترفًا ، ولا عسكريًّا ساذجًا مغفلًا ، بل بدأ حياته مجاهدًا مكافحًا كفاح الشجعان الأقوياء ، حياة بدأها صاحبها بين كر وفر ، ورمح وسيف ، حياة خاض صاحبها غمار الحروب ببسالة فلم تزده تلك الحروب إلا قوة إلى قوته ، وعقلًا إلى عقله ، وحكمة إلى حكمته ، حتى صار أميرًا لجيش شهد له المؤرخون بالبراعة والقوة والشجاعة ، هذا الجيش الذى لم يدخل مصر محاربًا الصليبيين ، وشاور من أجل مغانم يأخذونها أو إقطاعات سيهبها لهم قائدهم ، بل من أجل « ألا يسلموا مصر للكفار » . جيش أقام أعظم دولة عرفها المسلمون فى عصورهم الوسطى .

وهذا الجيش هو الذى أصاب الفرنجة بالرعب إذ رأوا فى وقوع مصر فى أيدى شيركوه هلاكهم وقطْع دابرهم من بيت المقدس ، فيقول ابن واصل المؤرخ فى ذلك : « إنهم قد خافوا خوفًا شديدًا إذا ما تحقق ذلك – وهو اتحاد مصر والشام – وأيقنوا بالهلاك وأن بلادهم تُستأصل » [2]. ولكن تحقق ما كانوا يخشونه ، فحين هبوا لاحتلال مصر خوفًا على مملكتهم الصليبية ، قام شيركوه بحملته الثالثة والأخيرة على مصر ، والتى كانت فيها النصرة دون قتال ، حيث ألقى الله – عَزَّ وَجَلَّ – الرعب فى قلوب الصليبيين قبل مجىء الجيش المسلم ، فهم لم يكادوا يسمعون بمجىء الجيش حتى انسحبوا فارين بعد معاهدة عقدوها مع شاور الخائن[3]. وفى هذا يقول ابن واصل : « وكان هذا من أجَلّ

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٥٤ . (٢) المرجع نفسه ، ص ٥٣ .
(٣) « البداية والنهاية » ، ج ١٢ ، ص ٢٢٩ .

الفتوح وأعظمها ؛ إذ لو استولى العدو لعنه الله على الديار المصرية لاستولى على سائر الخطة - البلاد - الإسلامية »[1] . ويتم قتل شاور وينصَّب مكانه شيركوه الذى لم يلبث فى الوزارة شهرين حتى توفى ، ليتولى من بعده صلاح الدين الوزارة سنة (٥٦٤ هـ) ، ليبدأ عهد جديد للأمير قراقوش ، وهو عهد بناء الدولة الجديدة الفتية ، وهى الدولة الأيوبية ، تلك الدولة التى كان بهاء الدين قراقوش أحد دعائمها ، فواصل فيها مسيرة الجهاد ، فمن عجيب الدولة الأيوبية أنها نشأت من الجهاد وللجهاد ، فتكونت فى أحشائه ، وتخلقت فى رحمه ، وولدت فى ميدانه ، ونشأت وترعرت بين أحضانه ، فرضعت من لبانه ، وشبَّت على جياده ، ثم تحتضر بين رحى سيوفه ، وتموت شهيدة فى ميدانه كما ولدت فيه ، وتكفن بكفنه ، وكأنها لم تخلق إلا لهذه المهمة .. الجهاد حتى الموت[2] .

ويواصل قراقوش مسيرة جهاده مع الدولة الجديدة ، حتى أنه لفت نظر قائده صلاح الدين إليه ، فقرَّبه من نفسه وأعلى من شأنه وقدره ، حتى أن صلاح الدين لم يجد خيرًا من قراقوش عندما توجه الصليبيون لأخذ «عكًّا» من المسلمين ليجعله أميرًا عليها وقائدًا لجيشها لصد العدو ، وقدم الأمير بهاء الدين قراقوش بالفعل ما كان يرجوه منه سلطانه ، فأبلى فى جهاد الصليبيين أحسن البلاء هو وجنوده ، حتى

(١) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(٢) فقد بدأت الدولة الأيوبية حياتها بجهاد صلاح الدين ضد الصليبيين حتى استعاد القدس ، لتكن الحروب بعد ذلك بين الطرفين سجالًا على طول عهد الدولة الأيوبية ، حتى تنهار الدولة الأيوبية ، وهى فى مواجهة الصليبيين ، فآخر ملكين لها وهما نجم الدين أيوب ، وابنه توران شاه ، ماتا فى أثناء مواجهة الصليبيين ، فالأول حين علم بدخول الصليبيين دمياط جاء من دمشق وهو مريض محمولًا على محفة إلى المنصورة لجهاد العدو وهو على فراش الموت ، فظل على ذلك حتى مات ليتولى الأمر من بعده ابنه توران شاه الذى ماكاد ينجح فى صد الصليبيين عن دمياط حتى قتله المماليك ، فتقوم دولتهم ويواصلوا المسيرة فيكون فى عهدهم الإخراج النهائى للصليبيين من ديار الإسلام . انظر : « العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى » ، للدكتور عبد المنعم ماجد ، ص ١٩٦ .

أنهم لاقوا من شدة المواجهة من المحن والشدائد ما لم يلاقوه من قبل – من جراء شدة الحصار الصليبى عليهم – حتى لم يجد بهاء الدين قراقوش بدًّا من الكتابة إلى صلاح الدين ، فكتب إليه بأن المدينة قد نفدت أقواتها ، فبعث إليه صلاح الدين بالمدد (1) ، ولكن اشتد الحصار وزاد البلاء ، وأبى الله إلَّا أن ينفذ قضاءه ، فدخل الصليبيون « عكا » ، وقتلوا وأسروا من فيها من المسلمين ، وكان ممن أسروا ، أميرهم بهاء الدين قراقوش ، ولكن افتداه سلطانه وحده بعشرة آلاف دينار ، فلما جاءه فرح به صلاح الدين فرحًا شديدًا (2).

وهكذا .. فهذه صفحة من صفحات تاريخ قراقوش المشرق ، فهيا بنا لنقلب صفحة أخرى من تاريخ هذا الرجل ، وهى صفحة نكشف فيها دوره العظيم فى تأسيس وتدعيم بناء الدولة الأيوبية .

٢ – قراقوش أحد مؤسسى الدولة الأيوبية :

عقب وفاة أسد الدين شيركوه بدأ يظهر بقوة على الساحة ثلاثة رجال ، كانوا أركانًا قوية للدولة الوليدة ، وهم الفقيه عيسى الهكارى (3) ، والقاضى الفاضل (4) ، والذراع اليمنى لصلاح الدين وهو بهاء الدين قراقوش ، ولكن لم يكن بناء الدولة الجديدة أمرًا ميسورًا فى بادئ الأمر ، فكان هناك الكثير من العقبات أهما المتربصين بصلاح الدين فى الداخل

---

(١) « البداية والنهاية » ، ج ١٢ ، ص ٣٠٢ . كان قراقوش نائبًا على (عكا) آنذاك هو والأمير سيف الدين المشطوب .

(٢) « وفيات الأعيان » ، ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٩١ .

(٣) كان من الفضلاء وكبار الأمراء ، وكان من أصحاب أسد الدين شيركوه ، دخل معه مصر ، ثم لازم صلاح الدين حتى توفى سنة (٥٨٦ هـ) ، ودفن بالقدس .

(٤) كان من العظماء فى العلم والبيان ، قال عنه ابن كثير فى « البداية والنهاية » : « ولم يكن له فى زمانه نظير ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مثيل ، ولما استقر الملك لصلاح الدين جعله كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسه ، توفى سنة (٥٩٦ هـ) .

والخارج بعد توليه الوزارة ؛ وذلك لتقويض أى استقلال قد يقوم به صلاح الدين ، ويتمثل المتربصون فى الخارج فى نور الدين الذى لم يبعث صلاح الدين مع عمه إلى مصر إلا بهدف توحيد مصر فى الشام وتطويق الصليبيين ببيت المقدس ، وأما المتربصون بالداخل فيتمثلون فى حاشية القصر الفاطمى وجيشه من السودان الذين رأوا فى تنصيب العاضد لصلاح الدين وزيرًا له خطرًا عظيمًا يهدد مستقبلهم وكيانهم .

هذه كانت ظروف نشأة الدولة الجديدة . وهنا يظهر دور الأمير بهاء الدين قراقوش وجهوده فى تدعيم أساسات الدولة التى فى طور المخاض . فعلى المستوى الخارجى تمرد القواد النوريون - الموالون لنور الدين فى الجيش الصلاحى - بعد تقلد صلاح الدين الوزارة حيث كانوا يطمعون فيها لأنفسهم ، وهنا تذكر المصادر أن « صلاح الدين أحاط بجماعة الأسدية المنتسبة إلى عمه أسد الدين وعدتهم خمسمائة مملوك ؛ إذ مالوا إليه غداة وفاة عمه .. وكان على رأس الأسدية بهاء الدين قراقوش الذى عرف بإخلاصه لآل شادى - بنى أيوب - وأصبح ذراع صلاح الدين الأيمن فى تنفيذ سياسته »[1]. وهكذا يقف قراقوش بجنوده لنصرة صلاح الدين فى مواجهة أى تهديد للوليد الذى كانت ملامحه تتبين يومًا بعد يوم .

أما الخطر الثانى المتمثل فى الداخل ، وهو خطر الحاشية الفاطمية وجيشها ؛ إذ كان لحاشية القصر الفاطمى نفوذ وسيطرة على القصر بزعامة كبير لهم يدعى مؤتمن الخلافة جوهر ، وكان خصيًّا أسود ، دبر مؤامرة لإسقاط صلاح الدين ، كتب فيها للفرنج ليقدموا إلى مصر ، ولكن وقع الكتاب فى يد صلاح الدين فبعث إليه من قتله ؛ فثار السودان على صلاح الدين ؛ فتصدى لهم الجيش الصلاحى وهزموهم[2].

---

(١) « الناصر صلاح الدين الأيوبى » ، ص ٨٥ .

(٢) « البداية والنهاية » ، ج ١٢ ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

وأما عن دور بهاء الدين قراقوش فى هذا الخطر فتذكر المراجع أن مؤتمن الخلافة هذا فكر فى وضع يده على شىء من ذخائر القصر ليستعين بثمنها على تشجيع الجند على المؤامرة ، فعلم صلاح الدين بذلك فأرسل إلى صاحبه المخلص الأمين بهاء الدين قراقوش ليجعله متوليًا القصر الفاطمى يحرسه ويصون ذخائره [1] . وبعد موت العاضد يطلق صلاح الدين يد قراقوش فى القصر ليتولى أمر الفاطميين فيه على السبيل الذى يقطع به دابر القوم ويكسر به شوكتهم ، وفى ذلك يقول المقريزى فى « الخطط » : « ولما مات العاضد لدين الله .. احتاط الطواشى قراقوش على أهل العاضد وأولاده .. وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا وليكون ذلك أسرع لانقراضهم » [2] .

وأما عن كنوز القصر فيقوم قراقوش حارسًا عليها حتى تسلمها منه صلاح الدين . أما خزانة كتب القصر فكانت تحوى آلافًا مؤلفة من ذخائر الكتب ، فاستأذن الأمير سلطانه فى بيع هذه الكتب الهائلة ، فأذن له صلاح الدين فى ذلك ، وكان هدف قراقوش فى ذلك التخلص من هذه الكتب وما تحويه أكثرها من خرافات الفكر الشيعى الفاسد ، وعلومهم وأدبهم ، ذلك الأدب الذى جهل قراقوش خطره وخطر أهله ؛ بحكم طبيعته ونشأته العسكرية الجدية التى لم تأبه لا بالأدب ولا بغيره سوى بالجهاد والمعمار الحربى فى ظل دولة حربية نشأت للجهاد ، فلم تعرف غير الجد والقسوة مع الأعداء . فأدى كل هذا بقراقوش ، لأن لا يأبه بالأدب ولا بأهله وهو لا يعلم أنه سيُسلط عليه منهم من سيمسخ تاريخه المشرق ويشوه صورته النقية ويحولها إلى أضحوكة يضحك منها الجاهل والعالم .

المهم أننا نخلص من هذا المبحث بأن قراقوش وجنوده كان مثلهم

(١) « حكم قراقوش » ، ص ١٧ .
(٢) « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، المقريزى ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

فى الدفاع عن دولتهم الوليدة بمثابة شغالات النحل التى تحرس شرنقة اليرقة وترعاها وتذب عنها أى عدوان خارجى حتى تنمو .

٣ – قراقوش .. المعمارى البارع :

ليس من الغريب أو العجيب أن نعلم أن ما أنشأه قراقوش من عمائر فى عهد صلاح الدين أدرج ضمن كتاب يسمى بـ « عجائب البنيان » [١] ، فما أنشأه بهاء الدين قراقوش من بنيان فى عهد صلاح الدين أذهل العلماء والباحثين قديمًا وحديثًا ، حتى أن ابتكاراته وبناءاته المعمارية تشهد له بلسان حالها قائلة : إنه لو لم يكن لهذا الرجل من دليل على عقل حكيم وفضل عظيم على الإسلام والمسلمين إلا هذا لكفاه ذلك بكل فخر ، فإن هذا الرجل قد أبدع من الأعمال ما لا يكون إلا عن قريحة تتوقد ذكاءً وتفيض عقلًا وحكمة .

وإذا أردت أخى القارئ أن تتحدث عن مدى الحنكة والمهارة التى أبدعت ما سنتحدث عنه ، فلك أن تحدث ولا حرج :

عُرف عن قراقوش أنه متولى هندسة العمائر أيام السلطان صلاح الدين [٢] ، وسبب إنشاء قراقوش ما أنشأه هو ما تذكره المصادر التاريخية أن صلاح الدين عقب توليه ملك مصر ، رأى كثرة ما يحيط به من أخطار فى الخارج والداخل ؛ فوجد أنه ينبغى تحصين البلاد من هذه الأخطار [٣] . وتذكر المصادر : « أن صلاح الدين لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة [٤] لكل واحدة منهما سور لا يمنعهما ، فقال : إن

---

(١) ذكره المقريزى فى خططه ونقل عنه ، وهو للقاضى ناصر الدين شافع بن على .

(٢) « خطط المقريزى » ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

(٣) كان من أعظم الأخطار الخارجية ، الصليبيون الذين كانوا يتربصون بمصر . أما الأخطار الداخلية ، فقد ذكرنا أنها كانت متمثلة فى بقايا الفاطميين .

(٤) مصر هنا هى مصر القديمة المحتوية على الفسطاط عاصمة مصر أيام الفتح ، والقطائع عاصمة مصر أيام الدولة الطولونية ، والعسكر عاصمة مصر فى العهد العباسى . وأما القاهرة هنا فالمقصود بها قاهرة المعز لدين الله الفاطمى التى بناها جوهر الصقلى .

أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جيش مفرد يحميها ، وإنى أرى أن أدير عليهما سورًا واحدًا .. وأمر ببناء قلعة فى الوسط - وسط السور - على جبل المقطم ، فأمر بابتداء البناء من ظاهر القاهرة ببرج فى المقسم - المقس [1] - ، وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج - قلاع - وصلها بالبرج الأعظم - يقصد قلعة الجبل أو قلعة صلاح الدين - » [2] ، ولكن من يكون لهذا المشروع الضخم غير الأمير بهاء الدين قراقوش الذى عرف عنه الحب والمهارة فى البناء والتشييد ، وصدق المستشرق كازانوفا حين قال : « أما ذلك المشروع الضخم .. فلا يمكن تنفيذه إلا على يد رجل قوى .. » [3] .

وأعطى السلطان إشارة البدء لأميره المخلص ليبدأ تنفيذ المشروع العظيم ، ولم يتأخر الأمير قراقوش فى تنفيذ الأمر ، فبدأ على الفور لينفذ المشروع الذى قضى فيه عمره كله ، فلم يكد ينهيه حتى توفى [4] .

وأما عن خطة المشروع ، فهى كما وصفه سلطانه ، فبدأ بالمقس [5] ، ذلك الميناء القديم الذى كان عنده ساحل النهر قبل انحساره الحالى ، فأنشأ فيه قلعة عرفت باسمه ومسجدًا جامعًا الذى يرجع تاريخه إلى الفاطميين ، ولكن للأسف هدمت القلعة فى عهد المماليك على يد الوزير شمس الدين وزير الأشرف شعبان لتجديد جامع المقس السالف ذكره [6] .

---

(١) ميناء قديم للقاهرة فى الشمال ، ويطلق عليه اسم المقس والمقسم .

(٢) « تاريخ ووصف قلعة القاهرة » ، بوك كازنوفا ، ص ٤٤ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٥ .

(٤) يذكر البعض أنه تُوفى قبل إتمامه .

(٥) هى ميناء القاهرة القديم ، وهى فى بادئ أمرها قرية كانت تعرف بأم دنين ، ثم عرفت بالمقس ، وسبب تسميتها بالمقس أن صاحب المكس كان يقعد بها ، فقيل : المكس .
انظر : « الخطط المقريزية » ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

(٦) « الخطط المقريزية » ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

ثم يستمر البناء في السور بأبوابه - انظر الخريطة - إلى موضع القلعة، وبعدها يستمر السور حتى الكوم الأحمر بأبوابه - انظر الخريطة - ليتم إغلاق حلقة الدفاع حول البلاد سنة (٥٧٢ هـ) [١]، وهنا يكتب القاضي الفاضل إلى صلاح الدين رسالة طويلة منها : « والله يحيى المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ويمتد عليه رواقه .. الآن قد استقرت خواطر الناس وأمنوا من يد تتخطف ، ومجرم يقدم ولا يتوقف » ، فلما قرأ السلطان الرسالة سر بها وبأميره ، فقد علم أن الله قد أراد بدولته خيرًا حين قيض لها مثل هذا الأمير [٢] .

أما القلعة وهي أعظم ما أنشأه قراقوش في حياته ، فقد أخرج قراقوش كل ما عنده من جهد لتخرج على الوجه الأكمل الذي يليق بحصن يُتحصن به ويُحكم منه . وقد اختير موقع هذه القلعة بعناية ، فهي متصلة بجبل المقطم ، وتشرف على مصر والقاهرة والنيل ، فتصير القاهرة في الجهة البحرية منها ، ومصر في الجهة القبلية ، والنيل في غربيها ، وجبل المقطم من ورائها في الجهة الشرقية [٣] .

ويتم قراقوش بناء القلعة العظيمة [٤] في زمن وجيز (من ٥٧٢ هـ إلى ٥٧٩ هـ) لا يقارن بهذا العمل الضخم ، مما أدهش الباحثين ، ففي هذا يقول كازنوفا : « وهكذا فإننا إذا اقتصرنا على ما ينسب بناؤه فعلًا إلى صلاح الدين لوجدنا أنه عمل ضخم للغاية وإن سبقه أعوام (من ٥٧٢ هـ إلى ٥٧٩ هـ) ليست شيئًا يذكر بجانب ضخامة هذا العمل .. » [٥] . وهكذا ينهي المهندس العظيم عمله الضخم ليترك الباحثين والمؤرخين من بعده غارقين في دهشة وتعجب مما بناه وكأنه يقول لهم

---

(١) « تاريخ ووصف قلعة القاهرة » ، ص ٥٩ . (٢) « حكم قراقوش » ، ص ٢٤ .

(٣) « الخطط المقريزية » ، ج ٢ ص ٢٠١ .

(٤) ما أتم قراقوش عمله في القلعة زيد عليه ، وتم تجديده إلى أن أصبحت على ما هي عليه الآن .

(٥) « تاريخ ووصف قلعة القاهرة » ، ص ٨٣ .

بلسان حاله متحديًا : هيا .. أخبرونى برأيكم ! ليطلق الجميع شهقات الانبهار والإعجاب ، فتخصص لدراسة هذه القلعة الصفحات والكتب والندوات ، ليشهد الجميع على براعة وعظمة من شيَّد هذا الصرح . فهذا الصرح ضم من العجائب ما أفاضت المصادر التاريخية فى ذكرها ووصفها ، ومن عجائب هذه القلعة الخندق الذى حفر فى جوف الصخر وهو محيط بسور القلعة ، وفى هذا يقول ابن جبير : « .. وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرًا فى الصخر ، عجبًا من العجائب الباقية الآثار .. » [١] .

ومن أعاجيب هذه القلعة ، أعجوبة العجائب بئر يوسف التى بها ؛ لأجل وجود الماء فى داخل القلعة بواسطتها إذا حصل لها حصار من عدو [٢] ، تلك التى وصفها ابن عبد الظاهر بقوله : « وهذه البئر من عجائب الأبنية ، تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها ، وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء » [٣] .

وليس من عجائب البنيان مما أنشأه قراقوش ما ذكرناه فقط ، فمن أهم أعماله أيضًا قناطر الجيزة التى قال عنها ستانلى لينبول : بأنها آخر الأعمال الدفاعية العظيمة [٤] . هذا العمل الذى جعل صاحبه من العمالقة الجبارين فى البناء ، ولنترك المقريزى يصف لنا عظم هذا العمل ، قال فى « عجائب البنيان » : « إن القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة ، ومن أعمال الجبارين ، وهى نيف وأربعون قنطرة عمرها الأمير

---

(١) « رحلة ابن جبير » ، ص ٥٢ ، وقد زار ابن جبير مصر زمن صلاح الدين ، وشاهد بعينه بناء القلعة والسور .

(٢) « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة » ، على مبارك ، ص ٦٩ .

(٣) « الخطط المقريزية » ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٤) « سيرة القاهرة » ، ستانلى لينبول ، ص ١٥٩ .

قراقوش الأسدى .. وكان خصيًا روميًا سامى الهمة .. »[1]، وكان هدف صلاح الدين من هذه القناطر عمل ممر محصن لصد أى هجوم لعدو قد يأتى من ثغر الإسكندرية فى وقت الفيضان[2].

ومما يذكر عن هذه البناءات التى أقامها قراقوش أنه أوقف عليها أحجار الأهرام الصغيرة بالجيزة ، فكان يهدمها ويستخدمها فى بناء التحصينات التى كان يقوم بها[3].

• ومما يذكر أيضًا من مآثر قراقوش فى هذه الأعمال - وبخاصة القلعة والسور - أنه سخَّر له عشرات الآلاف من الأسرى الصليبيين الذين كان يبعثهم صلاح الدين إليه من الشام ، وهم أسارى حربه مع الفرنج هناك ، ففى هذا يقول ابن جبير : « والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة .. العلوج الأسارى من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة .. »[4].

بل ويذكر البعض أن صلاح الدين لما طلب منه أن يسرع فى المشروع دفعته الرغبة الصادقة فى الإنجاز إلى أن يسخر المسلمين أنفسهم فى البناء ، فكان يقف للناس فى الطريق فيأخذهم قسرًا ويلزمهم المساهمة فى العمل ، ويذكر أنه كان ينقدهم أجرهم بعد ذلك فيأخذونه وهم صاغرون[5]. ولعل هذا هو ما أوغر قلوب المصريين على قراقوش ، فكان لهم الدور الأكبر فى إشاعة ما ادعى عليه من حكايات وأباطيل كما سيأتى .

---

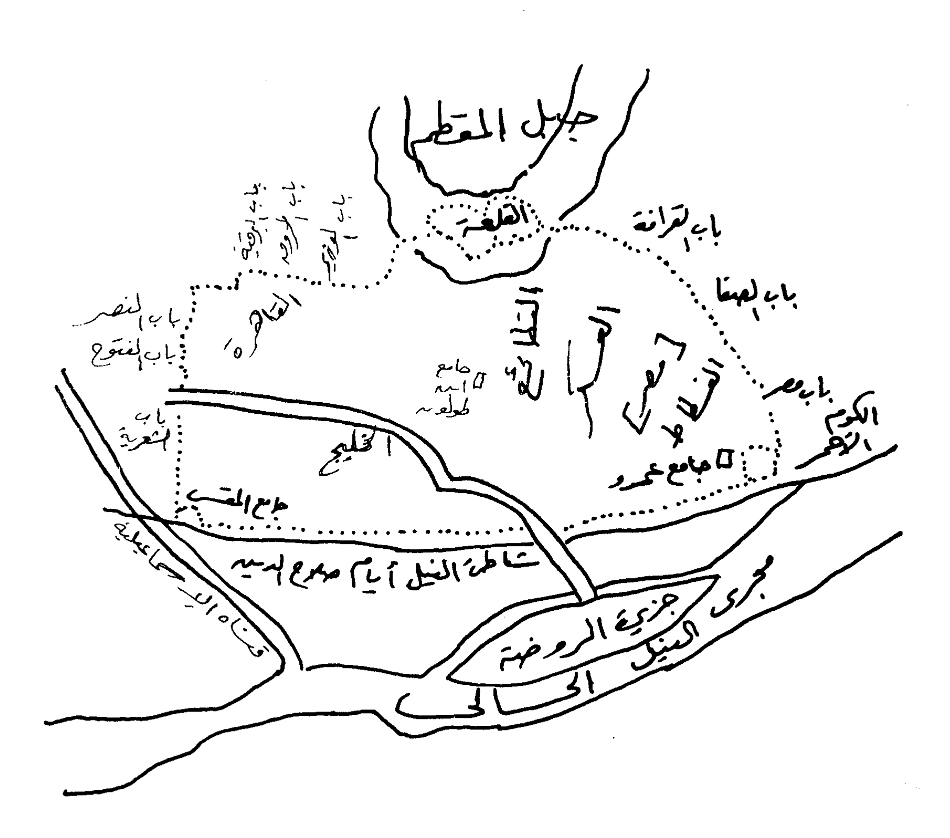
(١) « الخطط المقريزية » ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

(٢) « سيرة القاهرة » ، ص ١٦٠ .

(٣) « رحلة عبد اللطيف البغدادى » فى مصر ، ص ٨٩ .

(٤) « رحلة ابن جبير » ، ص ٥٢ .

(٥) « الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى » ، للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق ، ص ١٢ .



التحصينات التى قام بها قراقوش للقاهرة
ومصر فى عهد صلاح الدين

عن « تاريخ ووصف قلعة القاهرة » كازنوفا

وليست هذه هى كل أعمال قراقوش المعمارية ، بل إنه أبى إلا أن يجعل ختامه مسك الختام ، فكانت آخر أعماله التحصينية فى حياته تقريبًا تحصينه (عكا) ، فبعد أن رأى صلاح الدين عظمة ومهارة قراقوش فى العمارة والتحصين ، رأى بعد فتحه (عكا) سنة (٥٨٣ هـ) أن يرسل لقراقوش ليأتى فيحصنها خاصة وأن أسوارها كانت قد تهدمت عند فتح صلاح الدين ، فضلًا عن أنها كانت من أهم المدن وأجلها عند الفرنج ، فهم لم يكونوا ليتركوا صلاح الدين يأخذها بسهولة ؛ لذلك كان على صلاح الدين أن يحصنها بقوة ، وبالطبع لم يجد خيرًا من قراقوش ليقوم بهذا العمل ، فأرسل فى استدعائه فجاءها ومعه عمال ومهندسون من أهل مصر وبعض أسارى الفرنجة لتسخيرهم فى مشروعات تحصينها ، كما أحضر أدوات وآلات كثيرة كما تذكر المصادر ، ويقول الدكتور عبد المنعم ماجد : « فكان تحصين قراقوش لأسوار عكا وبروجها عملًا معماريًّا فنيًّا ضخمًا ، تمكن به من مقاومة الغزاة الأوروبيين زهاء ثلاث سنوات »[1] .

فرحمك الله يا بهاء الدين ، لو يعلم الناس ما قدمت لدينهم لهابوك ولكن صدق من قال : « لا كرامة لنبى فى قومه » .

٤ – قراقوش المخلص الثقة :

توفى صلاح الدين (١٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ) ليتوزع ملكه بين أبنائه الثلاثة : (العزيز – الأفضل – الظاهر) ، وأخيه (العادل) ، فكان نصيب العزيز (مصر) ، والأفضل (دمشق) وما حولها ، والظاهر (حلب) وما يليها ، والعادل (الجزيرة والرها) وغيرها من البلاد الشرقية[2] ، ولكن لم يلبث الأمر حتى وقع الشقاق بين الأربعة على

(١) « الناصر صلاح الدين الأيوبى » ، ص ١٢٨ .

(٢) « حكم قراقوش » ، ص ٢٩ ، « سيرة صلاح الدين الأيوبى » ، القاضى بن شداد ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

حكم البلاد ، فالأفضل ساءت سيرته فى ملكه (دمشق) ، وتسلط على ملكه وزيره - سيئ السمعة - ضياء الدين بن الأثير الجزرى فحرضه على طرد أمراء أبيه ، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر ؛ ودفع كل ذلك بالعادل إلى تعميق الخلاف بين الإخوة [1] ، فلما رأى ظهور العزيز على الأفضل تدخل العادل لصالح الأفضل ، وأوغر صدور جند العزيز ضد قائدهم وسلطانهم مستغلًّا فى ذلك فتنة وقعت فى جيش العزيز بين فرقتين من أعظم فرق الجيش وهما فرقة الصلاحية - المنتسبة لصلاح الدين - ، وفرقة الأسدية - المنتسبة لأسد الدين شيركوه ومنهم قراقوش - على اعتبار أن العزيز كان يقدم الصلاحية على الأسدية ، فكاتب العادل الأسدية يخوفهم من العزيز ، وكاتب العزيز يخوفهم من الأسدية . وظهر أثر هذه الحيلة عند خروج العزيز من مصر لقتال الأفضل ، وأهم ما يعنينا هنا هو دور قراقوش فى هذه الفتن وموقفه من العزيز ، تذكر المصادر أن العزيز لما هَمَّ للخروج إلى دمشق لقتال الأفضل ، فبحث عمن ينوب عنه فى مصر فى أثناء خروجه ، ولم يكن هناك أهل لثقة العزيز غير أميره المخضرم بهاء الدين قراقوش ذراع أبيه الأيمن ومحل ثقته ونائبه الدائم على أهم ثغر فى ديار الإسلام وهو مصر . وبالفعل تولى الأمير قراقوش المهمة باقتدار وإخلاص هو بهما معهود ، حتى لما وقعت الفتنة التى ذكرناها آنفًا وحدثت مراسلات العادل للإيقاع بين الأسدية والعزيز تجلى إخلاص الأمير قراقوش بأعلى صوره ، فإن كتب العادل لما وصلت إلى الأسدية وهم فى طريقهم إلى دمشق بيتوا سوء النية لقائدهم ، فكتبوا لإخوانهم فى مصر لكى يحولوا بين العزيز ودخول مصر عند عودته إليها .

أما الأسدية الذين كانوا مع العزيز على دمشق فقد أجمعوا أمرهم

---

(١) وذلك بهدف الاستئثار بالملك وتوحيد شتاته ، كما كان الأمر أيام صلاح الدين تحت قيادته الخبيرة لمواجهة الخطر الأعظم وهم الصليبيون .

على الانسحاب من الميدان لإضعاف العزيز ، وهنا لم يجد العزيز بدًّا من العودة إلى مصر ، وكانت كتب الأسدية وصلت إلى إخوانهم فى مصر ، وهنا تتجلى أعظم صور الإخلاص من قبل بهاء الدين قراقوش نائب السلطان على مصر ، فقد رفض هذا الأمير الأسدى أن يتغير على سيده ، فقام فى الأسدية يخوفهم ويهددهم ويحذرهم عاقبة غدرهم وخيانتهم ، فما زال بهم حتى أطفأ نارهم وبدد حيلهم لتُحبط المؤامرات ، بل لم يكد العزيز يصل مصر حتى كان قراقوش فى استقباله يمهد له طريق الدخول [1] ؛ ليكون ذلك جميلًا يطوق عنق العزيز مدى الحياة ، وعند وفاته أيضًا ، فقبل وفاة العزيز أوصى بالملك من بعده لابنه المنصور ذى التسع سنوات تحت وصاية أميره المخلص بهاء الدين قراقوش [2] .

ولكن يختلف الأمراء بعد وفاة العزيز على هذه الوصاية ، فاتهموا قراقوش بما لم يكن فيه بهدف نزع السلطان منه ، وذلك بقولهم : « إنه مضطرب الرأى ضيق العطن » [3] ، وكان هذا الاختلاف أيضًا عاملًا من عوامل تشويه صورة قراقوش بإشاعة هيئة الإعلام - وكانت وقتها الأدب وأهله - بما لم يكن فيه لنزع ولاية الأمر منه . وانتهى الأمر باستدعاء الأمراء الأسديين للأفضل ليتولى الأمر بدلًا من قراقوش ، ولكن يظل الأمير قراقوش على ولائه وإخلاصه لآل أيوب ، فيتنازل عن الوصاية للأفضل بن صلاح الدين وأقسم له بالطاعة .

ويبر الأمير بقسمه وذلك حين همَّ العادل للمسير إلى مصر لتنفيذ مخطط التوحيد ، فقام الأمير قراقوش بتحصين القلعة لصد الهجوم بكل همة وإخلاص لسيده ، ولكن يقضى الله أمرًا كان مفعولًا ، بأن يكتب للعادل النجاح فى دخول مصر ؛ لينقضى الأمر بتنازل الأفضل عن

---

(١) « حكم قراقوش » ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، ص ٤٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٠ .

العرش لعمه العادل ، ويتم العفو ويكون الصلح ، وتحصل الوحدة .

أما قراقوش ، فقد بلغ من الكبر عتيًا بعد أن شاخت سنه ، فما كان منه بعد أن استقرت الأمور واستتب الملك وانتهى لأيد قوية ، إنه رغب فى لزوم بيته لينتظر الأجل المحتوم [١] ، فما كانت إلا أشهر بعد استقرار الملك للعادل حتى توفى الأشم الذى شيَّد بساعديه صرح دولة من أعظم دول المسلمين فى العصور الوسطى . فكانت وفاة الأمير العظيم فى مستهل رجب سنة (٥٩٧ هـ) بالقاهرة ، ويشاء القدر أن يدفن الأمير بجانب أعماله ، فدفن فى تربته المعروفة به بسفح المقطم بقرب البئر والحوض اللذين أنشأهما على شفير الخندق [٢] .

فرحمك الله أيها الأمير وجزاك عن الإسلام خير الجزاء .

٥ – قراقوش المفترى عليه :

أعتقد بعد كل ما عرضناه سابقًا أن كل ما نسب إلى هذا الأمير إنما هو أباطيل حيكت حوله غيلة وبهتانًا ، وأراها توضح بقوة مدى الظلم الذى لحق بهذا الرجل بعد موته ، وكيف أن ما حكى عنه من حكايات إنما هى افتراءات افترى بها عليه بعض الحاقدين . وودت قبل أن أفند هذه الافتراءات أن أورد شهادات لبعض العدول على سبيل إظهار حق هذا الأمير المظلوم ، وإن كنت أعتبر أن سيرة هذا الرجل هى الشاهد الأول بكل ما قدمه من خدمات جليلة فى خدمة الإسلام والمسلمين ، فهى بحق خير شاهد على من ينطق بأن صاحبها لم يكن يومًا مخبولًا أو معتوهًا كما نسب إليه ، وأول من سنورد شهادته من العدول هو صلاح الدين نفسه الذى نُسب إليه قوله فى شأن أميره قراقوش : « ما أرى لكفاية الأمر المهم وكف الخطب الملم ، غير الشهم ، الماضى

---

(١) « حكم قراقوش » ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) « وفيات الأعيان » ، ج ٤ ، ص ٩١ .

السهم ، والمضىء الفهم ، الهمام المحرب ، المنقاب المجرَّب ، المهذب اللوذعى ، المرجب الألمعى ، الراجح الرأى ، الناجح السمعى ، الكافى الكافل بتذليل الجوامح ، وتعديل الجوانح ، وهو الثبت الذى لا يتزلزل ، والطول الذى لا يتحلحل ، بهاء الدين قراقوش ، الذى يكفل جأشه بما لا تكفل به الجيوش » [١] .

والشهادة التالية للعماد الأصفهانى [٢] حيث يقول فى « وفيات » سنة (٥٩٧ هـ) - وهى سنة وفاة قراقوش - : « وفيها توفى الأمير بهاء الدين قراقوش ، وهو من القدماء الكرماء ، وشيوخ الدولة الكبراء .. ولم أر غيره خصيًّا لم تقاومه الفحول ، ولم يؤثر فى محال مأثراته المحول ، وله فى الفتوحات والغزوات مواقف معروفة ومقامات موصوفة » [٣] .

والشهادة التالية لابن خلكان [٤] فيقول : « كان - قراقوش - رجلًا مسعودًا وصاحب همة عالية ، وهو الذى بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل ، وبنى القناطر التى بالجيزة .. وهى آثار دالة على علو الهمة ، وله وقف كثير لا يعرف مصرفه ، وكان حسن المقاصد ، جميل النية .. وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين .. والناس ينسبون إليه أحكامًا عجيبة فى ولايته ، حتى إن الأسعد بن مماتى له جزء لطيف سماه « الفاشوش فى

---

(١) المجلة العربية ، عدد ٢٦٢ ، ص ٢١ ، نقلها الدكتور غازى القصيبى عن كتاب « قراقوش المظلوم حيًّا وميتًا » ، لصالح محمد الجاسر .

(٢) كان قرين القاضى الفاضل ومعاصرًا لقراقوش ، وكان كاتب الدولة الأيوبية ، وقد اشتهر فى زمن الفاضل ، وفى ذلك يقول ابن كثير : « من اشتهر فى زمن الفاضل فهو فاضل » ، وقد أثنى عليه الفاضل .

(٣) « حكم قراقوش » ، ص ٧٩ .

(٤) وهو قاضى عصره ، قال عنه ابن كثير : « هو أحد الأئمة الفضلاء والسادة العلماء ، والصدور الرؤساء » ، ولد سنة (٦٠٨ هـ) فى عهد الدولة الأيوبية ، وتوفى سنة (٦٨١ هـ) فى عهد الدولة المملوكية .

أحكام قراقوش » وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة ، فإن صلاح الدين كان معتمدًا عليه فى أحوال المملكة ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه »[1] .

وهذا ابن إياس يقول عنه فى كتابه « بدائع الزهور » : « كان قراقوش القائم بأمور الملك ، فساس الرعية فى أيامه أحسن سياسة ، وأحبته الرعية ودعوا له بطول البقاء »[2].

وهكذا نكتفى بذلك لننتقل بعد ذلك لدراسة ما افترى به على الأمير قراقوش ، وأول شيء نقوله هنا أخى القارئ : أن انظر بعين فاحصة ممحصة لما حُكى عن قراقوش من أباطيل كاذبة ، لترى مدى سذاجتها ومخالفتها للعقل بكل حال من الأحوال ، فهذه حكايات لا يصدق عقل أن تصدر عن رجل اعتمد عليه صلاح الدين فى إدارة دولته فى أثناء غيابه عنها ، بل تخالف العقل إذا قارنا هذا الوصف لهذا الرجل بما أنشأه هو نفسه من أعمال تشهد على أن هذا المتهم فى عقله بالخبل إنما يملك ذكاءً باهرًا ، وعقلًا بارعًا ، وذهنًا متوقدًا ، بل كيف برجل عقله « محزمة فاشوش » - كما يقول ابن مماتى[3] - : « قد أتلف الأمة .. ولا يعرف المظلوم من الظالم » يضعه صلاح الدين على ملك مصر - نائبًا عنه - ولا يشتكيه أحد من الشعب ولا من رجال الدولة للسلطان الذى عرف عنه العدل مع أعدائه ، فكيف برعيته ؟! بل

---

(١) « وفيات الأعيان » ، ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٩١ .

(٢) « النوادر الشعبية المصرية » ، الدكتور إبراهيم شعلان ، ص ٢٢٢ .

(٣) فقد صدَّر ابن مماتى فى كتابه « الفاشوش » بقوله : « إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش ، محزمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم . الشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته ، ويشتط اشتياط الشيطان ، ويحكم حكمًا ما أنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » .

انظر : « حكم قراقوش » ، ص ٥٤ .

أين عدول الدولة وكبارها من المشهود لهم بالعدل والكفاءة والتقوى والورع – وأولهم القاضى الفاضل – من هذا الظالم الذى « يحكم بما لم ينزل الله به من سلطان » ؟! فكان أحرى بالقاضى أن يرفع هذا بنفسه إلى السلطان ليريح منه المسلمين حقًّا ، لا أن ينتظر ابن مماتى ليفعل هذا ، وهو كاتب السلطان ووزيره ، ولكن على العكس من ذلك ، فإننا لا نجد فى مراسلات القاضى الفاضل لصلاح الدين غير أن البلاد تسير بأفضل ما يكون ، وأن رعيته فى مأمن من كل شر .

بل إننى أتساءل : لماذا لم يبد صلاح الدين أى رد فعل لكتاب ابن مماتى الذى صنفه خصيصًا لصلاح الدين ليريح منه المسلمين ، فلا نراه عزله أو عاتبه ، بل يظل قراقوش نائبًا عن السلطان فى مصر ، بل إن صلاح الدين يستدعيه فى أثناء حربه مع الصليبيين فى (عكا) ليستعين به هناك فيوليه عليها . وسبب ذلك أن هذا الكتاب لم يصل أصلًا إلى صلاح الدين ، بل فضلًا عن هذا وذاك أننا لم نر أحدًا من السلاطين أو من الكتَّاب والمؤرخين – عدا ابن مماتى بالطبع – قدح فى قراقوش بشىء ، بل نجد فى المصادر المؤرِّخة لهذا العصر أنها إذا ذكرت قراقوش لم تذكره إلا بكل خير ، بل نراها تفند كل ما نسب إليه من أكاذيب ، بل إن العزيز يوليه مصر نائبًا عنه حين خرج لقتال أخيه الأفضل ، بل ويجعله وصيًّا على ابنه بعد موته .

ومن ثم ، فنحن لا نجد أمامنا بعد كل هذا سوى أن نرجح أن هذا الكتاب لم يصنف إلا فى وقت متأخر ، وأنه ما صُنِّف سوى لأغراض سياسية – سيلى ذكرها – جمعت من أجلها حكايات من أفواه الشعب كانوا يتندرون بها ، أى أن ابن مماتى لم يصنف كتابه بناءً على حقائق شاهدها بعينه ، وسنبين ذلك بالأدلة الآن . هذه **واحدة** .

أما الثانية : فهى أن هذه الحكايات بها أشياء تدل على جهل مخترعها بشخص قراقوش جهلًا تامًّا ، فمن المعروف أن بهاء الدين

قراقوش كان خصيًّا ، ومع ذلك نجد من الحكايات ما تذكر أنه كان له ابن – انظر : الحكاية الثانية عشرة – ومنها ما وصفته بالعجز الجنسى حين يأتى زوجته [1] . وهذا هو الدليل الأول على أن هذه الحكايات من صنع الشعب – الذى كان بعيدًا عن قراقوش ، فلم يعلم عن حاكمه الكثير – وأن ابن مماتى لم يصنعها بناء على حقائق شاهدها بعينه ، فابن مماتى أعلم بقراقوش من الناس بحكم منصبه [2] ، ولا أظن أنه كان يجهل أن لقراقوش ابنًا أو إنه كان خصيًّا .

الثالثة : أنه قد ظهر بالبحث أن هذه الحكايات ليست وليدة عصر قراقوش ، أى أنها لم تكن جديدة نبعت من شخص قراقوش وأفعاله فرآها الناس منه فرووها عنه بناء على مشاهدة ، كما قد يتبادر إلى ذهن القارئ عند قراءة هذه الحكايات ، ولكنها حكايات سابقة على قراقوش كانت منسوبة لأشخاص آخرين ، ثم شاعت فى مصر فى عصر قراقوش فألصقت بشخصيته [3] – لعوامل اجتماعية وسياسية وسيأتى ذكرها – ، وهاكم ما ثبت بالبحث فى شأن بعض هذه الحكايات : فالحكاية الثانية : نسبت إلى جحا فى كتاب « الحمقى والمغفلين » [4] ، والحكاية الثالثة : نسبت بمعناها لرجلين غير قراقوش فى كتابىْ « الحمقى والمغفلين » ، و « البيان والتبيين » [5] ، والحكاية الرابعة : نسبت لنصر بن مقبل عامل الرشيد على الرقة حين أتى له بشاة كان رجل يمارس معها الفاحشة فجلدها [6] ، والحكاية السابعة : نسبت للوزير ذى السعادات فى كتاب

---

(١) وردت هذه الحكاية فى الحكايات ، ولكن لم نوردها لفحشها كما أسلفنا القول .

(٢) فابن مماتى كان من كبار رجال الدولة ، فكان رئيسًا لديوان الجيش ، وهذا ما دفع المؤرخين أن يجعلوا من أسباب وضع ابن مماتى لهذا الكتاب حقده على مكانة قراقوش ، ذلك الخصى التركى الذى يحكم مصر والمصريين نائبًا عن السلطان .

(٣) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ١٧٢ .

(٤) « أخبار الحمقى والمغفلين » ، ابن الجوزى ، مكتبة ابن سينا ، ص ٣٨ .

(٥) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ١٧٣ .

(٦) « أخبار الحمقى والمغفلين » ، ص ٨٣ .

« الحمقى والمغفلين »[1]، والحكاية التاسعة : نسبت لجارية فى كتاب « العقد الفريد »[2]، والحكاية العاشرة : نسبت لمعاوية بن مروان فى كتاب « العقد الفريد »[3]، والحكاية الثالثة عشرة : نسبت لجحا[4]، والحكاية السادسة والعشرون : نسبت لجحا أيضًا[5].

هذا بعض ما وقفنا عليه ، وما خفى كان أعظم .

الرابعة : أن هذا الأسلوب العامى الردىء الذى عُرضت به الحكايات لا يصلح لأن يكون تقريرًا كتبه رئيس ديوان – ابن مماتى – ليرفعه إلى السلطان ليريح المسلمين من نائبه قراقوش ، فهذا الأسلوب لا يصدر إلا عن عامة الشعب ورعاعهم ، وليس أسلوب أديب راقٍ . وعلى هذا فحين يصنف ابن مماتى هذا الكتاب بهذا الأسلوب ، فإنه ليس أمامنا سوى أن نؤكد أنه ما صنفه إلا من الشعب وللشعب متحايلًا فى سبيل تحقيق مصلحة ليس لها شأن بالمسلمين وصالحهم كما ادعى هو ذلك ، وإنما هى مصلحة تخص فردًا أو قومًا .

الخامسة : وهى آخر ما يقال فى تفنيد حكايات ابن مماتى بأنها ما كانت إلا من اختراع الشعب ، ثم قيدها لهم ابن مماتى فى كتاب أنيق حفظ ما كان يتناقله الناس شفاهية فى الورق ، ثم تلقفته الأيدى فى كل مكان ليكون فى هذا الوقت بمثابة الدعاية الإعلامية التى ساعدت على تشويه صورة هذا الأمير وانتشارها .

وهذا الدليل الأخير هو قول ابن خلكان : « والناس ينسبون إليه أحكامًا عجيبة فى ولايته – قراقوش – حتى إن الأسعد بن مماتى له جزء لطيف سماه (الفاشوش فى أحكام قراقوش) ، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه والظاهر أنها موضوعة »[6] . فهذا القول يوحى إلينا أن الناس

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٨٥ .
(٢) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٣٦٩ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٧٠ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٧٢ .
(٥) المرجع نفسه ، ص ١٧٣ .
(٦) « وفيات الأعيان » ، ج ٤ ، ص ٩٢ .

كانوا هم أول من وضعوا ونسبوا هذه الأخبار العجيبة لقراقوش فى ولايته حتى إن ابن مماتى من فرط ما سمع عن قراقوش هذه الحكايات صنف فيه هذا الكتاب ، ثم ينهى ابن خلكان عبارته بترجيحه أن هذا الكلام غير المعقول لابد وأنه موضوع وليس حقيقة .

السادسة : وهى فى شأن حكايات السيوطى ، وأول ما نقوله عنها : إنها جاءت بعد حكايات ابن مماتى بثلاثة قرون ، ومن العجيب أن ينسى الناس بهاء الدين قراقوش خلال هذه القرون ، حتى صار قراقوش فى عصر السيوطى شخصية مجهولة لا أحد يعلم عنها إلّا ما يحكيه الناس عنها من حكايات مضحكة ، ومن الوثائق الدالة على هذا قول السيوطى نفسه فى مقدمة كتابه الذى عنوانه هو نفس كتاب ابن مماتى « سئلت فى درس بالجامع الطولونى فى أواخر المحرم سنة تسع وتسعين وثمانمائة عن قراقوش وهل له أصل فى التاريخ أم لا ؟ وكذا عن أصل وجوده ، وهل ما يعزى إليه من الحكايات المضحكة لها أصل أو لا ؟ فجمعت فى هذه الأوراق ما رق وراق فى ليلة واحدة ، وحررته فى ساعات قليلة ، وسميته كتاب « الفاشوش فى أحكام وحكايات قراقوش » .

ففى هذا النص عدة ملاحظات لمن أمعن فيه النظر :

أولها : ما ذكرناه آنفًا ، وهو وضوح مدى جهل أهل عصر السيوطى بقراقوش ، فهم لا يعلمون من هو ، وهل له أصل فى التاريخ أم لا ؟ وفى هذا عجب ، حيث إن ثلاثة قرون بين عصر ابن مماتى وعصر السيوطى ليست بالمدة الطويلة التى تجعل الناس يجهلون قراقوش للحد الذى يتساءلون : هل له أصل فى التاريخ أم لا ؟ ! وفى هذا دليل واضح على أن أحدًا بعد موت قراقوش لم يعد يذكر عنه سوى ما هو مكتوب فى كتاب « الفاشوش » الذى صنفه ابن مماتى ؛ ولهذا أرجح أنه لولا كتاب ابن مماتى لما تشوهت صورة قراقوش إلى هذا الحد ، ولما غفل الناس حقيقتها إلى هذا الحد أيضًا .

ومن هذه الملاحظة الأولى نخرج بنتيجة ، أن السيوطى هو الآخر لم يأت فى كتابه « الفاشوش » بجديد قد يحتمل الثقة فى أن ما نسبه إلى قراقوش حقيقة ، بل هى أيضًا حكايات قديمة كانت تحكى منذ قرون سالفة على سبيل التسرية دون أن يعلم أحد حقيقة صاحبها .

أما ملاحظتنا الثانية : فالسيوطى حين ذهب ليبحث فى شأن قراقوش والذى على سبيل هذا البحث « جمع هذه الأوراق » التى سماها الفاشوش ، وجدناه ساق نصًا آخر أعقبه نصه الأول - المذكور آنفًا - عرض فيه ما توصل إليه بحثه بمقولة نسبها إلى صاحب كتاب « النجوم الزاهرة » ، هى : « وكان وزيره بمصر الصاحب بهاء الدين قراقوش .. وكان رجلًا صالحًا غلب عليه الانقياد إلى الخير ، وكان السلطان يعلم منه عدم الفطنة والنباهة ، وكان إذا سافر السلطان من مصر إلى الشام فى زمان الربيع كما هى عادته فى كل سنة ، يفوض إليه أمرها مع مشاركة بعض أولاده ، لعدم استيثاقه منه بالانفراد في ذلك ، لكنه فى عام إحدى وستين وخمسمائة (٥٦١ هـ) حكمها منفردًا من غير مشاركة لوفاة ولى العهد المشارك له فى ذلك ، فلم يستقم له الحال ووضعت عليه الحكايات المضحكة »[1] . ونحن فى الحقيقة لا ندرى ، هل ما اطلع عليه السيوطى هو كتاب « النجوم الزاهرة » حقًّا أم كتابًا آخر ؟! وهل هذا النص هو لابن تغرى بردى صاحب « النجوم الزاهرة » أم لغيره ؟! فهذا الكلام يحوى أخطاء تاريخية تلغى مصداقيته كنص تاريخى . هذا أولًا .

أما ثانيًا - وهو الأهم - : أن الدكتور عبد اللطيف حمزة ينفى وجود هذا الكلام فى « النجوم الزاهرة » ، حيث يقول : « إننا نراجع كتاب (النجوم الزاهرة) الذى أحالنا عليه السيوطى فلا نجد فيه كلامًا كالذى أورده هذا المؤلف .. »[2] . ونحن نؤكد مرة أخرى أن هذا

---

(١) « حكم قراقوش » ، ص ٦٤ . (٢) المرجع نفسه ، ص ٦٨ .

النص من المستحيل أن يتم التعامل معه كنص تاريخى سليم ؛ فالنص يذكر : أن قراقوش حكم مصر منفردًا سنة (٥٦١ هـ) فصدرت عنه الأفعال المضحكة . وهذا خطأ تاريخى ؛ لأنه معلوم كما أوضحنا فى ثنايا هذا الفصل أن بهاء الدين قراقوش كان من رجال الدولة الأيوبية ، بل كان من مؤسسيها ، والدولة الأيوبية لم تقم إلا فى سنة (٥٦٧ هـ) بعد وفاة آخر الخلفاء الفاطميين (العاضد) ، وهذا ما تتفق عليه كل المراجع والمصادر التاريخية ، أى أن السنة التى قيل : إن قراقوش حكم فيها منفردًا لم يكن هناك شىء يسمى دولة أيوبية ، فكيف كان السلطان قبل هذه السنة يسافر إلى الشام كما هى عادته ؟ ! بعد تركه قراقوش مع مشاركة بعض أولاده على حكم مصر ؟!

وبعد كل ما سبق تأتى ملاحظتنا الأخيرة ، وهى : أن نص السيوطى الأول وحكاياته توحى بأن السيوطى لم يكن همه الأول عمل دراسة عن قراقوش بقدر ما كان يهدف إلى جمع بعض الفكاهات التى نسبت إلى شخص قراقوش بغرض التندر والفكاهة ليس أكثر . وهذا الغرض يعطى للسيوطى العذر فى جمعه هذه الحكايات ، وتفسير ذلك أنه معلوم عند أهل الحديث أنه من المستحب لعلم الحديث « بأن يختم الإملاء بحكايات ونوادر لترويح القلوب وطرد السأم »[1] .

كما أن السيوطى دفع عن نفسه شبهة الافتراء التى قد يواجهها البعض له بذكره النص اعتبره - رغم عدم صحته التاريخية - مرجعًا اعتمد عليه فى ذكر هذه الحكايات التى تصف صاحبها بالحمق والبلاهة ؛ ومن ثم فهو قد ألقى عهدة التهمة - تهمة الحمق - على المصدر الذى أشار إليه - والذى ثبت عدم صحته - وفضلًا عن هذا وذاك أن السيوطى لم يدعِ من عنده جديدًا كما قلنا من قبل ، بل كل ما فعله هو أنه نقل ما شاع ذكره من حكايات بين الناس إلى تلامذته .

---

(١) « تيسير مصطلح الحديث » ، للدكتور محمود الطحان ، ص ١٧٧ .

ومن كل ما سبق نخرج بالنتيجة الآتية ، وهى : أننا لا يمكننا الاعتداد بما رواه السيوطى أيضًا وذلك للآتى :

١ – أن هذه النوادر كان مصدرها الأساسى هو الشعب ، وهو فى العرف مصدر مجهول لا يعتد بروايته حتى يتبين الراوى ويُعلم مدى صحة نقله ومدى ثقته .

٢ – أن البعد الزمنى بين قراقوش والسيوطى مع خطأ الاستدلال التاريخى الذى عول عليه السيوطى حكمه على قراقوش[1] يجعلنا نرفض ما حكاه السيوطى عن قراقوش .

٣ – أن هذه الحكايات كانت ظروفها الاجتماعية التى مَخَّضَتْها ، هى الغرض الفكاهى ، هذا الغرض الذى كان هو أيضًا هدف السيوطى حين « جمع فى الأوراق ما رق وراق » من هذه الحكايات . فهذه الحكايات لم تَروَ على أنها روايات تاريخية صادقة ، بل هى حكايات رويت على سبيل التندر .

السابعة : وهى عن الكتاب الأخير المسمَّى بـ « الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » ، والكلام عن هذا الكتاب لن يطول لأمرين :

الأمر الأول : أن الكتاب لا يعلم عنه شىء سوى ما ذكره الدكتور عبد اللطيف عنه نقلًا عن كازنوفا ، وهو لم يذكر عنه شيئًا سوى اسمه وحكايتين قيل : إنهما من الكتاب المذكور . وغير هذا فلا يعلم عنه شيئًا ، لا مؤلفه ولا مكانه حتى الآن . ومن ثم لا يمكننا الاعتراف بشىء مجهول .

الأمر الآخر : أن عنوان الكتاب يدل دلالة واضحة على جهل مصنفه بقراقوش جهلًا تامًّا ، حيث إن عنوان الكتاب يقول : « الطراز

---

(١) فالسيوطى أنهى مقدمته بحكمه الذى على أساسه ذكر حكاياته تلك بقوله : « ومن سوء تدبير قراقوش وعدم صحة رأيه وصفه الناس بالحكايات المضحكة المضاهية لحكايات جحا » . انظر : « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٢١٦ .

المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » ومن المعروف جيدًا أن قراقوش لم يكن يومًا سلطانًا .

وبهذا نكون قد انتهينا من تفنيد ما افترى على الأمير قراقوش به لنخرج بالنتيجة التالية وهى : أنه بناء على ما سبق ، فإنه لا يمكن أن نصدق ما كتب عن قراقوش ، بل ولا يصح أن نعتبر ما كتب وثيقة تاريخية يُعتد بها لدى المؤرخين أو الباحثين فى التأريخ لهذه الشخصية - قراقوش - فهى لا تعدو كونها لغو حديث لغا به الناس على سبيل التسرى والتندر وليس على سبيل الحقيقة . فالرواية التاريخية الصحيحة لا تؤخذ إلا عن الثقات وما كتبه الثقات [1] .

أما عن حكايات رديئة المستوى لا ترقى لأن يصدقها عقل ولا منطق على واحد تشهد سيرته على عظمته وسمو شأنه ، وفضلًا عن هذا أنها حكايات لا يُعلم راويها الحقيقى ؛ فهى لا تعدو كونها إلا كما وصفها الدكتور إبراهيم شعلان : « .. إننا لسنا أمام نص حقيقى ثابت بالنسبة لابن مماتى ، وليس لدينا نص واضح المعالم يمكن الاطمئنان إليه ، وكل ما توفر .. هو نص نادرى متحرك غير ثابت ، ظهرت له صور مختلفة بعد قرون ثلاث » [2] . وصدق الدكتور عبد اللطيف حمزة حين قال : « إن كتاب الفاشوش كغيره من كتب القصص والخرافات تداوله الناس جيلًا بعد جليل .. والكتاب نفسه فى أثناء ذلك كله يأخذ أشكالًا مختلفة يختص كل شكل منها بجيل من الأجيال أو أمة من الأمم » [3] .

* * *

---

(١) وما كتبه الثقات من المؤرخين والباحثين عن هذه الشخصية يُكَذِّب كل ما قيل عنها .

(٢) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ٢١٨ .

(٣) « حكم قراقوش » ، ص ٦٣ .

الفصل الرابع

عوامل تشويه صورة قراقوش

١ – قراقوش نفسه :

ما من بشر مبرأ من العيوب ، فكل إنسان يحمل فى ثنايا نفسه نواقص فطر عليها بحكم طبيعته البشرية . وقد حوت شخصية قراقوش – كأى إنسان – بعضًا من نواقص البشر ، فقد عرف عنه الميل إلى الجد والعناد وفرط الجمود ، وعدم الميل إلى المرح أو المزاح ، كما عرف عنه البعد عن المرونة وشدة فى الخصومة ، وقسوة فى المعاملة ، وصلابة فى الطبع ، لم يكن يقر مبدأ المناقشة والتشاور فى الأمر ، ولم يكن يحتمل الإصغاء إلى جدل من كبير أو صغير ، ولم يكن يدارى أو يداهن ، لم يعرف فى معالجته للأمور رفقًا أو مواربة أو تساهلًا ، كما اتسم بشدة فى معاملة السوقة والعامة [1] .

وقد تبدَّت أغلب هذه الصفات حين همَّ ببناء القلعة والسور ، فقد كان شديدًا على الأسارى ، ولكن نال القاهريين شىء من هذه القسوة حين أراد قراقوش أن يتم العمل المكلف به على أكمل وجه وفى أسرع وقت ، فدفعه إخلاصه فى عمله إلى تسخير المصريين للمساهمة فى هذا العمل ، فتذكر المراجع أنه كان إذا لمح من القاهريين رجلًا ذاهبًا إلى عمله استوقفه وأرغمه بالمساهمة فى العمل ، ثم أعطاه أجره لينطلق الرجل بعد ذلك ساخطًا ناقمًا صاغرًا كاظمًا غيظه من هذه الشدة فى المعاملة التى ساوته بالأسارى فى هذا العمل .

وإذا نظرنا إلى هذه الصفات التى اتصف بها قراقوش ، فسنجد أنها

---

(١) « حكم قراقوش » ، ص ٧٢ ، ٧٩ .

مهما بلغت من شأن لا يمكن أن تصنع من صاحبها هذا الأراجوز المضحك المغفل إلى هذا الحد الشنيع ؛ كما أننا لو تأملنا هذه الصفات من منظورها الشخصى لصاحبها ، لوجدنا أنه كان معذورًا فى تخلقه بهذه الصفات ، فظروف التنشئة الحياتية التى عاشها هذا الرجل تحتم عليه أن يكون بهذه الصفات الجافة . فهو أولًا كبيئة عسكرية [1] ، ثم إنه لم يلبث أن جند فى صفوف جيش آل زنكى الذى كان مرابطًا على الثغور الشامية فى جهاد دائم مع الصليبيين ، ثم لم يلبث أن صار من رجال الجيش الأسدى ، الذى لم يلبث بدوره أن خاض غمار الحروب فى مصر ضد شاور والصليبيين ، ثم لم يلبث أيضًا أن أصبح من رجال الجيش الصلاحى ، بل ومن مؤسسى الدولة الأيوبية وكانت ظروف بناء هذه الدولة تحتم على أربابها ومؤسسيها أن يكونوا ذوى شدة وصلابة بسبب الخارجين الذين كانوا يتربصون بالدولة الناشئة إحدى السوأتين ، إما الغدر أو الخيانة ؛ لذلك حين أطلق صلاح الدين يد قراقوش فى القصر الفاطمى بالمراقبة والحراسة كان عليه أن يشدد عليهم حتى لا يعطى فرصة لأحد منهم للخروج على الدولة الجديدة التى كانت فى طور الخروج من الشرنقة . ولم يكد الأمر يستتب للسلطان الجديد حتى خاض غمار الجهاد ضد الصليبيين لاسترداد ثالث الحرمين - بيت المقدس - وكان للأمير قراقوش دوره فى هذا الجهاد . فهل نتصور بعد هذه الحياة القاسية أن تُخرج لنا رجلًا حانيًا لينًا عاشقًا للمرح ، ينشد الشعر وينادم الأدباء ويسمع القينات .

فحياة كهذه ما كانت لتنجب غير رجل جاد جاف عملى فى ظل ظروف معيشية لا بد فيها من العمل الدءوب لمواجهة الأخطار ، لا مجال فيها للكسل أو التراخى . وهذا ما أدهش الصليبيين أنفسهم من هذه الشخصية القراقوشية الفذة ، فقالوا عنها : « إنها شخصية

---

(١) فقد ذكرنا أنه نشأ فى الأناضول (تركيا) ، وأصل أهلها محاربون .

رجل محارب ، له روح غريبة أدهشت الصليبين وأثارت إعجابهم بشجاعة صاحبها ومهارته وقدرته ؛ حتى نظروا إليه على أنه جندى وقديس فى وقت واحد معًا »[1].

كما أننا لا يمكننا أن نغض الطرف عن خصلة من أهم خصال قراقوش كانت لها عاملها فى تشكيل شخصية قراقوش ، وهى خصلة الإخلاص ، فقراقوش كان يتسم بإخلاصه الأعمى لدينه ، وولى أمره الذى تمثل آنذاك فى آل أيوب . فكانت لهذه الخصلة أثرها فى أن يكون هذا الرجل لا يعرف الكسل أو التراخى فى تنفيذ الأوامر ، فحين أمره سلطانه بأن يكون على زمام القصر الفاطمى ، كان عليه أن يحمى سيده من أى خطر قد يحيق به ولو كلفه هذا الأمر حياته . وحين أُمر بتحصين مصر وبناء قلعتها كان عليه أن يبذل كل ما يملك فى تحصين أخطر ثغر للمسلمين ولو كلفه ذلك أن يسخر له من شاء من البشر ؛ لذلك لا عجب حين تصبح تلك التحصينات من العجائب التى أفاضت الكتب فى دراستها .

ومن ثم فلا لوم على هذا الرجل حين يكون قد استعمل شيئًا من القسوة مع المصريين عندما سخر بعضهم بقوة للمساهمة فى عمل سيعود عليهم وعلى بلادهم بالنفع ؛ لذلك فنحن نشهد بقوة أننا لا يمكننا أن نُحمل هذا الرجل أى وزر جزاء ما فعل ، بل كان على قومه أن يحمدوا الله - عَزَّ وَجَلَّ - على أنه قيض لهم من أدار ببلدهم نطاقًا ، ومد عليها رواقًا ؛ لتستقر خواطرهم ، وتأمن نفوسهم ، من يد تتخطف ، ومجرم يقدم ولا يتوقف ، ولكن للأسف الشديد ، نجد أن الإحسان لم يكن جزاؤه الإحسان ، بل كان جزاؤه الإساءة والجحود ، فعجبًا لقوم ينقمون ولا ينصفون .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٨ .

٢ – الشَّعب :

وللشعب دوران كانا عاملًا من عوامل تشويه صورة قراقوش :

أولها : وهو دور خاص يتمثل فى تصيده لنقاط الضعف التى تمثلت فى صفات قراقوش ليصيغوا منها حكايات باطلة يتندرون بها فى مجالسهم ، مفترين بها على رجل لم يكن ذنبه سوى أنه كان يتصف بالجد والصرامة ، والعجيب أنه لم يسخر صفاته لمصلحة شخصية ، بل سخرها فى خدمة دينه وأمته ، ولكن صدق من قال : « والجاد من الناس يخافونه ويرهبونه ، إلا أنهم يكرهونه ويضيقون به ، ويبسطون ألسنتهم فيه ، حتى إذا أفل نجمه أو فلتْ شوكته أو ضعفت قسوته ، انقلبوا عليه ينهشون عرضه ويشوهون سمعته ، ويعفُّون على آثاره ، ويودون لو استطاعوا أن يمسحوا اسمه من التاريخ »[١].

أما الدور الآخر للشعب : فهو دور عام ، يتمثل فى العلاقة – عند المصريين – بين الحاكم والمحكوم ، تلك العلاقة التى لها عند المصريين تاريخ طويل ، فالمصريون فى أصلهم معروف عنهم السلم مع حكامهم أيًّا كان هذا الحاكم ، فهذا الشعب بطبيعته يكره الاقتراب من الحاكم ويخشى مواجهته ، بل إنه يتحاشاه ، وهذه السمة التى غلبت على مر السنين جعلته يبحث عن وسيلة يواجه بها حاكمه إذا ظلمه أو جحده أو هان كرامته ، فلم يجد أمامه سوى الدفاع بالكلمة ، فكانت الفكاهات الساخرة من الحاكم ، وصنع النكات فيه ، تلك النكات والفكاهات التى دائمًا ما تكون مشحونة بالتعريض والتشنيع ، فكانت هذه الوسيلة هى سلاح الشعب ضد حاكمه إذا هانه أو جحده[٢]، فيشعر أنه قد رد بهذه الوسيلة لنفسه كرامتها واعتبارها ، وكأنه يقول لحاكمه : إنا نسخر منكم كما تسخرون منا .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٨٠ .

(٢) « النوادر الشعبية المصرية » ، ص ١٨٨ – ١٩٠ .

وهذا ما كان حاله مع قراقوش ، حين أخطأ فى معاملته مع بعض الناس – وإن كان لهذا الخطأ أعذاره ومبرراته التى أسلفنا ذكرها – فخلع عليه القوم حكايات مفتراة انتحلوها لشخصه وجدوا فيها متنفسًا لغيظهم الذى كظموه أمام حاكمهم ، فلم يستطيعوا عمل شىء سوى اللجوء لسلاح الكلمة .

هذا هو دور الشعب كعامل من عوامل تشويه صورة قراقوش ، ذلك الدور الذى استغله بعض الحاقدين لتحقيق مصالح سياسية ؛ لذلك فليس من العجيب أن نرى بصمة الشعب واضحة فى حكايات الفاشوش ، فهذه الحكايات فضلًا عما بها من نوادر نسبت لأشخاص آخرين قبل قراقوش ، فإن باقيها يعبر تعبيرًا صادقًا عن البيئة الشعبية المصرية بعباراتها ولغتها ، بل وحتى شخصياتها ، فمن الحكايات ما تنم عن صراع دينى كما فى الحكاية العشرين ، والثانية والعشرين .

كما أنها أظهرت صراعًا عنصريًا ، كما فى الحكاية الأولى التى اتهمت قراقوش بالتعصب العنصرى لبنى جنسه ، وكما فى الحكاية الرابعة ، والسابعة التى أظهرت هذا الصراع العنصرى الخفى .

كما أن الأزمة الاقتصادية التى حدثت سنة (٥٩٥ هـ) حين انخفض النيل فى هذه السنة ، ففرضت هذه الأزمة نفسها على هذه الحكايات فانتزعت لنفسها مكانًا بينها لتتمثل فى الحكاية السابعة عشرة .

كما أننا نتلمس صراعًا أخلاقيًا ظهر واضحًا فى الحكاية الرابعة ، والحكايتين الجنسيتين اللتين لم نوردهما ، كما أننا لا يمكننا أن نغض الطرف عن المنبع الرئيسى لهذه الحكايات والتى غذتها بروحها ، وهى الحياة الاجتماعية بجميع طوائفها ، وتمثل هذا واضحًا فى اللغة الدارجة التى عرضت بها الحكايات ، والمواقف التى عرضت لها ، والشخصيات التى لعبت دور البطل المساعد لقراقوش فى هذه الحكايات .

٣ - ابن مماتى :

فلابن مماتى دوره المحورى كعامل من عوامل تشويه صورة قراقوش ، ويتمثل هذا الدور فى التالى :

لما كانت منزلة قراقوش سامية القدر عند صلاح الدين والسلاطين الأيوبيين من بعده - فكان فى كل يوم يزداد رفعة فى الدولة -كان هذا مبعثًا للحقد لدى بعض الغرماء له ، وأول هؤلاء كان الأسعد ابن مماتى ، ذلك الأديب المصرى الذى كان يحتل وعائلته أعلى المناصب فى الدولة الفاطمية ، حتى جاء الأيوبيون ليكسروا شوكة الفاطميين ويهدموا عروشهم ، ويتسلط عليهم خصى رومى يسومهم وأشياعهم سوء العذاب . وكاد يُنزع من عائلة ابن مماتى ملكها لما علم أنهم نصارى ، فلا تجد العائلة مناصًا من الإسلام لتحفظ كرامتها وعزها ، وفى هذا قال شاعرهم :

لم يُسلم الشيخ الخطير [١]	لرغبة فى دين أحمد
بل ظن أن محاله	يبقى له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنه	فدينه (العود أحمد) [٢]

ولكن يحسن إسلام ابن مماتى ويتولى فى الدولة الأيوبية المناصب الكبرى ، فيتولى ديوان الجيش وديوان المال ، ويتصل بالقاضى الفاضل ليصبح أنيس مجلسه . ولكن يبدو أن ابن مماتى كان فى صدره حاجة من قراقوش ، ولعلها نشأت كما ذكرنا من علو شأن قراقوش ، ذلك الخصى الرومى الذى كان ابن مماتى يراه كالشيطان الذى حل عليهم بخيله ورجله ليشاركهم الجاه والسلطان ، فيصير أميرًا عليهم نائبًا على حكم مصر من قبل السلطان ، فأى شأن هذا لذلك الخصى ، وفى

---

(١) الخطير : هو أبو ابن مماتى .

(٢) « حكم قراقوش » ، ص ٤٧ .

البلاد من هو أولى بمنصبه منه ؟! ولعل ابن مماتى كان يرى فى نفسه أنه أهل لهذا المنصب من قراقوش ، ولكنه أسرَّ هذا فى نفسه ولم يبدها له ، ولكن يذهب فى صمت ليصنف كتاب « الفاشوش » فيه ؛ لينزل الأديب ابن مماتى فيه من عليائه كرجل أديب من كبار رجال الدولة ليلغو بلسان العامة فيجمع حكاياتهم عن قراقوش وهو عازم على رفع هذا الكتاب إلى السلطان صلاح الدين عسى أن يريح منه المسلمين . ولكن يبدو أن الفرصة لم تسنح له ليرفع كتابه هذا إلى صلاح الدين ؛ ولعل من أبرز الأسباب التى قد تكون منعته من تنفيذ مبتغاه سببين :

أولهما : انشغال صلاح الدين بجهاد الصليبيين الذى لم يكن يستريح منه ؛ لدرجة أنه منذ خرج أول مرة إلى الشام لجهاد الصليبيين بعد استتباب الأمر له فى مصر ، لم يأت مصر إلا لمامًا إلى أن تُوفى بالشام ودفن بها .

أما السبب الآخر وهو : لعل شوكة قراقوش كانت لا تزال قوية آنذاك .

وسواء كان هذا أو ذاك ، فإن القدر لم يعطِ لابن مماتى فرصة رفع هذا الكتاب إلى صلاح الدين ؛ فموت صلاح الدين يحول بين ابن مماتى وغرضه . ولكنه يرى أن قراقوش لا يزداد فى كل يوم إلا علوًّا فى منزلته لدى الأيوبيين بإخلاصه لهم ، ذلك الإخلاص الذى تجلى فى أزهى صوره عند حفظه لعرش العزيز حين تمرد الأسدية على سلطانهم ، بل يرى ابن مماتى الأدهى من ذلك ، وهو أن العزيز يجعله وصيًّا على ابنه من بعده . ولكن يتجدد الأمل فى ابن مماتى حين يختلف رجال الدولة بعد وفاة العزيز على وصاية قراقوش ، فقد وجد فى هذا الخلاف إضعافًا لشوكة قراقوش ، فقام بنشر كتابه بين الناس لينتشر بينهم انتشار النار فى الهشيم ليعمل عمله فى تشويه صورة قراقوش .

ويزداد الخلاف على وصاية العرش حتى يلقى أحدهم عبارة غريبة

لا يعرف قائلها ، وهى : « إنه - قراقوش - مضطرب الرأى ، ضيق العطن ، ولا يصلح لهذا الأمر » ، وغرابة هذه العبارة : أن أحدًا لم يلفظ بها قبل ذلك قط ، لا من كُتَّاب الدولة الأيوبية أو حكامها ، بل تزداد هذه العبارة غرابة بالنظر إلى حال قراقوش مع معاصريه قبل هذه اللحظة ، فما من أحد ، مسلم وغير مسلم ، إلا وشهد لهذا الرجل بسداد الرأى ، وتوقد الذهن . وهذا ما جعل الدكتور يرجح أن قائلها لم يكن غير ابن مماتى . ونحن نؤيد هذا الترجيح لسبب واحد ، وهو أن المصادر التاريخية لم تشر لا من قريب أو من بعيد على أنه كان هناك حقاد أو أعداء أيام الدولة الأيوبية لقراقوش غير واحد ، تشير إليه أصابع الاتهام بقوة وهو صاحب « الفاشوش » .

* * *

المصادر والمراجع

١ - **أخبار الحمقى والمغفلين** : ابن الجوزى ، مكتبة ابن سينا ، سنة ١٩٩٠م .

٢ - **الأعلام** : الزركلى ، دار العلم للملايين ، بيروت .

٣ - **البداية والنهاية** : ابن كثير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٩٩٧م .

٤ - **تاريخ ووصف قلعة القاهرة** : بول كازنوفا ، ترجمة الدكتور أحمد دراج ، الهيئة المصرية العامة ، سنة ١٩٧٤م .

٥ - **حكم قراقوش** : الدكتور عبد اللطيف حمزة ، دار الهلال ، سنة ١٩٨٢م .

٦ - **الخطط التوفيقية الجديدة** : على باشا مبارك ، الهيئة المصرية العامة ، سنة ١٩٩٤م .

٧ - **رحلة ابن جبير** : دار التحرير ، سنة ١٩٦٨م .

٨ - **رحلة عبد اللطيف البغدادى** : الهيئة المصرية العامة ، سنة ١٩٩٨م .

٩ - **سيرة صلاح الدين** : ابن شداد ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية .

١٠ - **العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى** : الدكتور عبد المنعم ماجد ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٦٦م .

١١ - **سيرة القاهرة** : ستانلى لينبول ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون ، الهيئة المصرية العامة ، مهرجان قراءة عام ١٩٩٧م .

١٢ - **الفاشوش فى حكم قراقوش** : السيوطى ، تحقيق : مصطفى وهبة ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، سنة ١٩٩٧م .

١٣ - **الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى** : الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق ، دار القلم ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣م .

١٤ - **الناصر صلاح الدين الأيوبى** : الدكتور عبد المنعم ماجد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨م .
١٥ - **مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب** : جمال الدين محمد بن واصل ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، دار القلم ، القاهرة .
١٦ - **النوادر الشعبية المصرية** : الدكتور إبراهيم شعلان ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، سنة ١٩٩٣م .
١٧ - **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** : المقريزى ، طبعة بولاق ، القاهرة .
١٨ - **وفيات الأعيان** : ابن خلكان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .
١٩ - **من عيون التراث** : جمال بدوى ، الهيئة المصرية العامة ، مهرجان قراءة عام ١٩٩٨م .

* * *

مراجع أُخرى للاستزادة

ـ **النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة** : ابن تغرى بردى .
ـ **الذيل على الروضتين** : أبو شامة .
ـ **مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان** : ابن الجوزى .
ـ **شذرات الذهب** : ابن العماد الحنبلى .
ـ **السلوك فى معرفة دول الملوك** : المقريزى .

* * *

فهرس الكتاب

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٩٠٣٠ / ٢٠٠٠

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـــ ١١٢٣١